سمير عبد الفتاح

عشرةُ دروسٍ من بيتنا الكبير

° أربع روايات قصيرة °

- سبعة دروس
- محروس الثامن عشر
- الكائن..والمكنون
- بندق

- الكتاب:عشرة دروس من بيتنا الكبير
- النوع : أربع روايات قصيرة
- المؤلف : سمير عبد الفتاح .
- الناشر : قراءة للنشر والترجمة
- ت: 35824136 -- 37408117
- samirabdelftah@hotmail
- الطبعة الأولي: أغسطس 2007
- رقم الإيداع : 12119 / 2007
- الغلاف : سمير عبد الفتاح



سبعة دروس من بيتنا الكبير

● النثرُ أصدق أنباءً من الشعر ●

نصيحة لم يقلها أبو تمام وصدقها أبي

الدرس الأول

اثنان علماني القراءةَ والكتابة :

ـ الشيخ مهدي.. والأستاذ عهدي!!

واثنان علماني كيف أجيدُ القراءةَ والكتابة:

ـ يوسف إدريس.. وبابلو نيرود !

واحدةٌ فقط علمتني كيف أحبو على أربع :

ـ أمي التي تحت التراب !

عشرون علموني كيف أجرى :

ـ كل القطط والكلاب التي طاردتني في طفولتي !

واحد وعشرون علموني الأدب...

وواحد وثلاثون لم يعلموني الأدب[1] .

أربعون علموني كيف أسبح.. واثنتان علمتاني :

ـ كيف أغرق[2] .

خمسون علموني كيف أقدمُ قلبي على عقلي، ومليون علموني كيف اكتفي بربع قلبي.. وثلث عقلي[3].

---

(1) مرفق كشف بأسمائهم، وأقسام البوليس التابعين لها.

(2) إحداهما ماتت غرقا.. والثانية كادت تتزوجني!!

(3) راجع دليل التليفونات. طبعة 63 ن.ح.س

واحدٌ فقط علمني كل ذلك :

ـ أبي الذي في الأرض !!

لم يكن الأمر يحتاج لإعمال عقلٍ.. أو إمعان نظر..

فقد نُقل إلى هنا مثلما ينقل كل "وكلاء البريد" .

أما كيف نُقل ولماذا؟ ومن نقله ولماذا؟ ومتى جاء وكيف؟

فكلها أسئلة منطقية ومشروعة ، لكنها تفتقر للشجاعة ، وتنطوي على سوء قصدٍ ونية!

هناك من يدّعي أنه اختلس مبلغاً من عهدته ، وهذا غير صحيح ، وهناك من يؤكد أنه ضرب رئيسه بالدباسة.. أو خاض في أوحال السياسة ، وهذا وارد ومطروح ، وهنالك من يغمغم بالفرنسية : ابحث عن المرأة - وهو احتمال قائم وميسور ، لكنه يفتقر للدقة وإعمال النظر.

لا سيّما بعد أن اعترف أبي - ذات ليلةٍ ليلاء - أنه تزوج في حياته المديدة من أربعة عشر امرأة ، لأنه لم يجد أكثر منهن!!

فأنجب وربّي أربع عشرة ولداً وبنتاً. وهو اعتراف كان يُدهش الكثيرين ، لا سيّما من لم يستطع منهم أن يهرب من فكي زوجته ، ولا يلوح في الأفق البعيد أي أملٍ قريب في ذلك!

وحتى لا يذهب خيالك الخبيث خارج الحدود ، أقول بأنه لم يكن يحتفظ ـ على ذمته ـ بأكثر من ثلاثة.. طبقاً للتشريع والتطبيع وترشيداً للإنفاق بنوعيه!

أمّا في طفولتي - وفتوته - فلم أر له سوى زوجة واحدة تشارك أمي بيتها وزوجها، ومطبخها ومقعدها..

فكان يحلو لأمي أن تعايرها بعقمها وغيضها.. كلما أنجبت ولداً.. أو بنتاً، حتى تجاوز عددنا التسعة، مات اثنان، وبقي من بقي!!

فإذا ما سألت أبي عن الحكمة من هذا الرقم الغريب -14 زيجة و14 ولداً وبنتاً- أشار إلى أنه يتشاءم من الرقم 13 ولا يحب الرقم 12 لأنه يدلُ على "الدستة"، والدستةُ توحي بالاكتمال، وهو لا يحب الاكتمال، وإن سعي نحو الكمال!!

هل تريد مزيداً من النم والتشفي؟!

لا بأس .. بعد أن وقعت الفأس في الرأس .. وهاك بعض ما لدي:

لم يكن أبي يقرأ الفلسفة حتى نقول بوجوديته أو تبنيه للقضايا المصيرية، إذ لم يكن- على سبيل الحصافة- يحب السياسة، وكل ما يمكن أن يتكلم حوله المرء دون أن يصيب.. أو يقع في الخطأ المعيب!

كان يعرف أنه لا يوجد صواب مطلق، ولا خطأ مطلق.. ولكن يوجد في كل حقيقة بعض الخطأ.. وفي كل خطأ بعض الصواب.

وعلى العاقل أن يعرف: كيف يعيش بأقل جهد يمكن بذله أو طاقة يمكن إهدارها.

ويعرف أن بعد كل قمة لابد أن يوجد سفح، ولكل بداية نهاية ويعرف أنها "شعرة رهيفة" لا يدركها إلا الممعنون.. وعلى اللبيب أن يبقي عليها دون أن يمزقها أو يقع في غوايتها .

لـذا... عـاش حياتـه بمنطـق أقـرب إلى السـليقة وأدنـي إلى الفطـرة، وأدعي إلى الحكمة والغواية.

لم يكن رأيه في ذلك يرجع لحبه لـ " سـارتر " أو تشيُّعه لهيجل، أو فهمـه "لهوسـلر" وإنمـا مـن تعاملـه اليـومي مـع البشـر، وانغماسـه في كواليس واقعهم المراوغ، ومعاناته مع أناس، لا يعرف أذكاهم أين تقع السنبلاوين، أو يبيعون الكلاب في سوق الثعالب "ويجدينون المعيز".

وهـي مسـألة لا أظنهـا خطـرت علـى بـال نيتشـه، وسـارتر أو قلـب أفلاطون، وإلا لكانوا قد توصلوا لحلول ناجعة للإنسانية المعذبة!

ولكن.. من أين تعلم أبي كل ذلك، وهـو اليتيم، الـذي لم يكمل تعليمه الأزهـري؟ وكيف شـكل هـذه العجينـة اللدنـة، وعـرف كيف يقطُر الحكمة، ويتجمل بكل هذا الصمت البليغ؟!

أكـذب لـو ادعيـت المعرفـة.. وأكـذب لـو أنكرتهـا.. لكـن بعـض أصدقاء أبـي - ومـا أنـدرهـم - يستطيع أن يشير إلى المرأة فيقترب من كبد الحقيقة، ويحرجني!

فهو حين يفعل ذلك، لا يبغي إثارتك أو تـدرك أو حتي شماتتك، وإنمـا ليقـرر حقيقـة لم يفطـن إليهـا نـابليون.. ولا هولاكـو، وتجاهلـها سـقراط فأعـدموه.. ونسـيها مـاركيوز فسـقط في جـب الاكتئـاب، وكابد شواردها كل من لم يعمل بمقولة جده الأول الذي نزع ورقة التوت عن عورته، وأكد :

- إن الحكيم الحقيقي يستطيع أن يتعلم من نملة شاردة!.. أو فيل جائع!!

وهو ما تجاهله الكثيرون. غباء أو ترفعا. وعمل به أبي:

- فقد عرف الخيانة والمهانة، حين ضبط زوجته الثانية في حضن جاره العازب. فطلقها ورافق أختها!!
- وعرف الحكمة والموعظة حين ماتت زوجته الأولي، وتركته يغسل كافولات أولاده الكثار، ويرافقهم إلى المرحاض!
- وعرف الأدب . والمهانة . حين تزوج من غجرية جواله تضرب الودع، وتشتم المندل، وتركب الحمير لترنو للبغال فلا تطبخ إلاّ لنفسها ، ولا تضع العطور إلا تحت أنفها .. ولا ترد الصفعة إلا باثنتين، واللعنة بعشر أمثالها.
- ثم انتهت هذه الزيجة نهاية مأساوية لا تحدث إلاّ في الأفلام الهندية .. ولا داعي للخوض في الأضابير!!
- ثم عرف السياسة . والكياسة . حين تزوج من امرأة حرون، ترفض أن تزاول دورها الشرعي، وتخاف كل ما يمشي على أربع بدءاً بالنملة الفارسية، وانتهاءً بالغوريللا الأفريقية. وانتهت هذه الزيجة حين عاد ذات ليلة ليجدنا عند الجيران، ويجدها قد أشعلت النار في الشقة.. وفي نفسها!
- ثم عرف الزهور والرومانسية حين تزوج من صبية مفرطة الحساسية ، إن هجرها بكت، وإن لمسها اشتكت ، وقبل أن تذرف الدموع، توقد الشموع، وتقارن بين ما كان وما آل.. وفي كل مرة ، لا تسلم الجرة! فطلقها طمعا في دخول الجنة!!
- ثم عرف العفة. والنوم كمداً. حين تزوج من "مُضيِّفة" تخاف على صدرها من الترهل ، وعلى جسمها من البدانة ، وأصابعها من

الخشونة، وعلى عينيها من القراءة ، وعلى شفتيها من الكلام ، وعلى شعرها من التراب ، فلا تطبخ ولا تأكل، ولا تشرب، ولا تتكلم، ولا تعود - ليلاً - إلاّ لتنام!!

- ثم عرف كيف يمضي جُل يومه في أي مقهى أو "سينما ماتينيه" حين تزوج من أرملة شرسة ، لا ترى في الرجل سوى نصفه الأسفل، ولا تعتد بأي دور له إلا على السرير!!
- ثم عرف التناحر والتشاجر والبوليس والنيابة حين تزوج من بائعة سمك بدينة ، تضع فيما بقي من صيواني أذنيها عدة أقراط مدورة ، حتى يسهل على خصومها شدها وإدمائها ، ويسهل عليها الادعاء والمسكنة.
- ثم عرف الصبر والمكابدة حين تزوج من ابنة رئيسه المباشر فرقي عدة مرات، وفُصل عدة مرات، ونُقل إلى بلادٍ لم تدركها الخرائط، ولا يوجد لها مداخل أو وسائط .

وحين رضي عنه، وأراد أن يجامله، نقله إلى بلاد مولعة بصبغ الحمير، وغش الحطب، ومص الجريد والقصب!

- ثم عرف القذارة واللزوجة والنتانة و"الرمامة" حين تزوج من فلاحة مولعة بتربية الدواجن، وكحت الكنيف والزرائب، وأكل البصل قبل النوم وبعده!
- ثم عرف "الروشة" و"الدوشة" و"الغوشة" حين تزوج من جارة شبه عاقلة وشبه مجنونة، لا تكف عن المسح والكسح، والغسل والفصل، والعصر والهصر، فإن تصادف — لا قدر الله — وصافحت أحداً - حتى ولو كان أبي - جرت إلى الماء والصابون

والديتول والسافلون، وظلت هنالك عدة ساعات حتى ينام كمدا.

- ثم سمع – لأول مرة – عن "البشلة" و"السنجة" و"المقروطة" و"المخروطة" حين صاحب ساقطة إلى فندق بعيد فهاجمه أخواها المسلحان، وأرغماه على الانصياع لسنة الله أو شهوة القانون!! فانصاع لحكمة من منعه من الفرار، وأغلق في وجهه كل قرار، وابتلاه بما يذل كل الرجال.. وبعض النساء!!
- ثم تعلم فضيلة السكون والوجوم، وبلاغة الإشارة والإمارة حين تزوج من أجنبية، لا يعرف لغتها ولا تعرف لغته .. لا تحب البصارة ولا تشرب سوي الكولا، وتتقيأ حين ترى الفسيخ والملوحة، وتبكي حين ترى بطة مذبوحة. فلا تنام إلا والنور مضاء، ولا تلبس إلا الفراء.. فطلقها بوازع من وطنيته، وحرصا على أبجديته!
- ثم عرف محنة البدانة، وفداحة القعود والرزانة، حين تزوج من أرملة بدينة لا ترى في الدنيا سوى جسمها، ولا يرى الرجال فيها غير ذلك. إن تكلمت تلعثمت، وإن تحركت تعثرت ، وإن تقدمت تأخرت . وقد قيل إنها ماتت من الفزع، حين ولدت مخلوقا مُشعراً، ظل يتواثب على الجدران والنوافذ حتى مات فزعا وخرافة. وقد ذهب المغرضون إلى أنها توحمت على قرد أثيوبي، وهذا كذب وافتراء.. فالحق أنه قرد صومالي!!
- وأخيراً عرف السجون والمحامين حين طلق ثلاثا من "نسوانه" الأربع حين تشاجرن في غيابه، وقطعن الجيوب

والخدود، وتجاوزن الحدود والسدود، ثم تمارضن في المستشفيات والعيادات، وأدعت أكثرهن عقورة فقدانها لجنينها الأول!!

كانت الحياة سهلة والمطامح أسهل، وكان يكفي أن تقرر الزواج فتتزوج، والطلاق فتطلق. لا نفقة ولا متعة ولا شقة ولا حفنة دقة ! فإذا ما كنت مالكا لصندوق هدوم، وحلة وماجور، وكنكة ووابور، وقطعتي كستورٍ ودمُّور، فحلال عليك ابنة العمدة.. وربّما ابنة المأمور.

فما بالك بمن كان يملك سريرين من خشب الزان ، وطاولتين من خشب الورد ، ومقعدين من خشب النرجس،ويرتدى بذلة كاملة بصفين، ويأكل التفاح والفطير.. ويعمل رئيساً لمكتب البريد؟!!

وعلى الرغم من كل ذلك، لا أظن أن هناك من فهم المرأة كما فهمها أبي.. فلم يكن يرى فيها أي غموض يستحق أن يكرس له العلماء والفضلاء كل هذا الجهد الجهيد، والصبر الغريب، ليفسروا الماء ــ بعد الجهد ــ بالماء!!

كان يرى أن المرأة مثل أي ورقة بيضاء، صُنعت لوظيفة واحدة ووحيدة ولا يجب أن نؤول ما بين سطورها.. فلا يوجد أي شيء بين هذه السطور، وما غموض المرأة إلاّ جزء من غموض الرجل، غموض الإنسان الذي لم "يعرف نفسه" بعد، لأنه يريد أن يعرف غيره فقط !

ولأن الحكمة تقتضي ألاّ نقدم الأسباب على النتائج، أو يشـــغلنا الظل عن الشجرة التي صنعته، فمن الفطنة أيضا أن يحيا الإنسان أولاً، قبل أن يتعلم كيف يحيا.. وأن يمشي قبـــل أن يـــتعلم كيـــف يجرى، ويبدأ الكل بالجزء، والثيب بالبكر، ويعـــرف أننـــا نصـــنع الآخرين من وهمنا، أما حقيقتهم، فتظل سراً لا يعرفه كلانا ومـــع ذلك لابد أن يعرف:

ـــ إن الزهور ما خلقت إلاّ لتقطف..

ـــ والنساء إلاّ لتنكح، والثمار إلاّ لتينع، والقلـــوب إلاّ لتخفـــق، والعقول إلاّ لتُخدع، والحاجات إلاّ لتشبع !

ومادام الإنسان سيظل عبدا لهذه الحاجات المتجددة.. فما عليـــه إلاّ أن يصارع ليحوزها ، ويعرف أن أفضل طريقة لفهـــم المـــرأة هي أن تتزوجها،لا أن تضعها موضع بحثٍ وتمحيص.. وفحـــصٍ وتقريص!!

كان يكفي أن يمشي في شوارع البلد لتسأله أرملة حســـناء، أو بكر ذات حياءٍ ورواء، عن خطابات باسمها..

فيطوى شمسيته ويقترب منها متفحصا ومتسائلا عـــن الاســـم والكنية،والقصد والنية..

أو تأتيه امرأة لتبصم على خطاب أو حوالة، فـ "ينقرها" بنظرة تكشف كل ما ترتديه، ويسألها عن اسم زوجها وكنيته،فترد بحسن نية ـ لا تصدر إلاّ عن فلاحي الدلتا ـ انه فلان الفلاني.. أو علان العلاني. فيصيح محوقلا ومحقراً.. فترتبك "الزبونة" وقد تتساءل وهى بين الجنة والنار عن غرضه من كل ذلك؟ فـ "يلم الموضوع" ويهوّن

عليها ما أصابها، وما إن يسلمها الخطاب أو الحوالة، ويضغط على يدها وهي تبصم بالإستلام، حتى يبدى استعداده للنظر في أمرها إن طُلقت من هذا الأهطل المأفون الذي لا ينام إلاّ على بطنه!! فتمضي المرأة مضطربة الخطوات والخطرات. وما إن تأخذ طريقها إلى بيتها حتى تزن الأمور بعقلها الذاهل وفي لحظة ضعفٍ ونزق، تقارن بين زوجها الأهطل الأجرب، الذي ينام على بطنه، ويُشخّر شخير الجاموسة حين تلد، وبين "اللافندي" الوكيل، بمظهره المرتب، وراتبه المرتب، ومكتبه المرتب، ولسانه الذي يقذف بالسكر المكرر، وتصدق ما يشاع عن بيته الواسع، وسريره الخشبي، وستائره الحريرية التي يستطيع أي مخلوق أن يراها من الخارج، وتشم رائحة التفاح والفول المدمس، فتصيح وقد أخذتها المباغتة: "يادي الحوسة.. وأنا إيه يصبرني على ابن بهانة؟" ثم تردف:

. منك لله ياللي كنت السبب!!

وفي البيت قد تفتعل أي مشاجرة مع زوجها وتطلب الطلاق، أو تهدد بحرق نفسها إن حرمها من ذلك.. لكن يحدث أن يغير أبي رأيه بعد يومين أو ثلاثة، ويكتشف . فجأة . أنه تسرع وتهور حين عشّم هذه الحرباء بالزواج.. فهي لا تستحق أن يضع اسمها في بطاقته . ليس لأن البطاقة امتلأت عن آخرها فحسب . وإنما لأنه وجد في المرأة مليون سبب للرفض والممانعة:

إذ لاحظ . على سبيل المثال . أن كعبيها مشقوقتان، أو سمانتيها غير مبرومتين، أو أن "هنشها" ليس باللدونة الواجبة أو أن شعرها

خشن حبتين، أو لأنه لحظ قملة، أو بقة، على طرحتها المتسخة.. إلى آخر مثل هذه المبررات التي قد تكزن صحيحة وقد لا تكون!

لكنها - في العادة - تعود لرشدها وزوجها، بعد أن تتدبر الأمر وتتأكد أن : أهطل في اليدين، ولا عشرين وكيل يضحك عليها بكلمتين!!

O

نعم كانت الحياة سهلة، والناس غير الناس، ولأننا كنا نسكن فيلا أشبه بالقصر على أطراف البلد، لا نعرف كيف اقتنصها العمدة من صاحبها الأجنبي، ولا كيف أخفاها عن لجان تصفية الإقطاع، وأجّرها لأبي بعدة جنيهات، كان مألوفا أن يطرق الباب الخلفي للفيلا أحد الفلاحين الحفاة وهو يملأ حجره بأشياء غامضة، وينادي من شبّاك البدروم أو المطبخ:

- ياللي هنا..

فترد أمي بكسلٍ وتراخٍ وهي واقفة بين المواعين والصواني:

- مين؟

- أنا أبو قتب.

- خش يابو قتب.. الباب مفتوح.

فيدخل "أبو قتب" ويرمي بما في حجره خلف الباب.

- أبويا درويش باعت لكم الغمر ده!

ويسرع بالفرار متعثرا دون أن يسمع رداً، وكأنه تخلص من حجر فئران!! وعادة ما كانت أمي تلقي نظرة على الأرض فتعرف أنه

خيار، أو طماطم، أو باذنجان، أو ذرة، أو لفت. وكثيرا ما كانت تشتم الرجل لأنه بعثرها على الأرض!

وقد تأتي بنت صغيرة حافية القدمين منكوشة الشعر، ترتدي ثيابا من الشيت الرخيص. وهي تحمل على رأسها الصغير طاجن لبن رائب كبير على سطحه كتلة قشدة في حجم البرتقالة، وهي تبكي وتشن، وتسب أمها لأنها ضربتها، وأجبرتها على توصيل هذا الحمل الثقيل إلينا، فسقط اللبن على وجهها، وامتزج اللبن بالقشدة وما تكاد ترى الخفير حتى تسلمه "الأمانة" وتفر عائدة بين الأشجار والحقول.

- استني يابت.. بت يا خضرة.. استني خدي الطاجن. ربنا ياخدك وياخد أمك في يوم واحد.

وتجرى خضرة على أمل ألا تعيد الكَرَّةَ في اليوم التالي، فتأخذ القديم وتترك الجديد!!

كانت كل هذه الأشياء تأتينا مجانا.. ليس لأننا فقراء، وإنما لأننا لا نملك أرضا نزرعها، ولا بقرة نحلبها.

لم تكن الفلاحات يبعن اللبن، ومنهم من يعتبر ذلك من واجبات الضيافة، لذلك كان الفقير يأكلْ أفضل من الغني.. ويجد من يكسيه في الصيف والشتاء، ولا يغضب أحد إن "حود" بعضهم على أرضه فملأ عبه بخيار أو طماطم .. أو أتى بحطب وشوى الذرة أو الفول في أرضه ، فهو لن يأكل أكثر من طاقته وهي - في النهاية - صدقة تخصم من ذنوبه، وقربان لحمايته من الأمراض وأرضه من البوار، ومواشيه في السقوط في بئر ساقية، ومازال الجميع يذكرون

ما حدث "لسحتوت أبو نخله" الذي بخل وتغابي فماتت زوجته، وأتت "الفرة" على دواجنه وشب حريق في بيته ولولا ستر الله لحرقته الحمى. كانت البيوت متلاصقة ويستطيع المرء أن يمشي على سطحها كما يمشي على الأرض، وعادة ما كان يعرف الجميع أن ذهب العرسان ونقود "النقطة" ملقاة على التسريحة، أو في الدولاب، ومع ذلك لم يحدث أبداً أن سُرق ذهب، أو تعدى جار على امرأة جارة، أو شك أحد في أهله، كانت تحدث بعض الخلافات على الري حين يضن النيل بفيضه والعقل بحكمته، لكن الأمر كان ينتهي بشخطةٍ من كبير، أو "زغرةٍ" من متعلم، أو "قلمين" من العمدة!!

وكانت المرأة تجلس على المصطبة وترضع طفلها ثم تترك ثديها خارجا حتى يعود من اللعب، دون أن ينظر أحد إليها، أو تشعر بما يخجل أو يورط. كانت الناس "شبعانة" و"زهدانة" ولم يكن يهمهم الثدي في شيء، فهو محض "ببرونه" لتغذية الوليد. بل لم تكن تهمه المرأة أصلا، ما دام لا يملكها. وهي - بدورها - لم تكن تتلهف على لقائه. فهي سواء كانت أرملة أو متزوجة ليس لديها وقت حتى لتغير ثيابها.. فهي تفتح عينيها على الزريبة فتنظفها وتجففها، وتحلب الجاموسة، وتربط الحمار، وتوقف الجمل، ثم تعجن وتقرِّص، وتأتي بما يشعل الفرن ويُفطر الأولاد، وتكنس الدار وتغسل الغسيل ، وتنظف زجاجة اللمبة، وتملأها بالجاز، وتدعك المواعين بالرماد، وتعد الغداء لزوجها أو أولادها في الغيط، وتطحن القمح والأرز، وتنظف السمك أو تذبح الأرنب، وتخض اللبن أو تصنع

الجبنة، وتخلل الليمون "وتزغط" البط و"تلم" الإوز من الترعة المجاورة. وتنام بثيابها كالفسيخة بجوار زوجها المهدود!!

كان أبي يعرف ذلك، ويعرف كيف يعافر هؤلاء الناس، وكيف يقاومون ويجالدون لمجرد أن يعيشوا، لذلك كان يحبهم، ويشفق عليهم لأنه يعرفهم، ويوقن أنهم امتداد لأجداده الذين بنوا الهرم ولم يسكنوه، وزرعوا الأرض لغيرهم..

كان هناك من يتخيل أننا مركز الكون، وما عدانا فراغ.. وما خلف الأفق إلا بلاد الشياطين والمردة، لا نراهم إلا في مواسم القطن، حيث يأتوننا متشحين بثياب غريبة، ووجوه بيضاء كالقطن، أو مشربة بحمرة البنجر، فيزنون القطن وتلال الزهور، وينفحون النقود لتتزوج البنات، وتطلق النساء، وتعلو الزغاريد والعويل، وتكثر الخطابات والدمغات، وتتغير دفاتر التوفير، قبل أن يأتي التجار بحرير الهند، وشباشب الصين، وعجوة الصعيد. وسردين رشيد، وبرد الإسكندرية. ويقام سرادق لمولد "المنوفي" ويطلب من أبي أن يقول كلمة، فيمسك بالميكرفون، ويرتجل ما يضحك الشباب، ويخجل البنات، ويتعارض مع جلال المناسبة!

لذلك انقسم الناس في تفسير أبي: منهم من نعته بالمروق وحب النساء، ومنهم من رأي أنه رجل طبيعي لكن مشكلته الوحيدة أنه يمارس رجولته بشجاعة لا تعجب من فقدوها . وأنهم - في قرارهم - يحسدونه، لكنهم أجبن من أن يعلنوا ذلك!!

قال رجل يقرأ كثيرا ويسافر أكثر، أنه من الغبن أن نلوم الأسد لأنه يأكل اللحم، ولا نلومه إن أكل الخس والجزر!!

وأشار آخر - يقال إنه سرق مال أمه ليعتمر به - إنه لم يره يخلع نعليه أمام جامع، ولا يفرق بين الثيب والبكر، ولا بين القرض والفرض!

غير أن ما كان يدهشني - وما يزال - هو ولع أبي بضرب الذكور على أقفيتهم، وهي عادة محرجة - يقال إنه ورثها عن أبيه - وهي هواية ربما كانت أغرب من جمع مخلفات النيازك، أو خشب السفن الغارقة.

والأغرب من كل ذلك أنه لم يترك أحداً إلاّ وضربه، وفي كل مرة يخرج من المأزق دون أن يشتمه أحد، أو يتعرض لسكين غلام غاضب!!

ففي يوم أجازته، كان يرتدي بذلته الصيفية الفاتحة، أو جلبابه الأبيض المكوي، ويملأ جيبه بالمسكرات والسجائر. على الرغم من كرهه للسكريات، والتدخين. لكنه كان يضعها للمصالحة، وربّما الرشوة، فإن ضرب ولدا على قفاه - فجأة - وغضب، صالحه "ببمونايه" وإن كان مدخنا صالحه بسيجارة!!

وهو سلوك مكلف، وغير مفهوم للنظرة العجلى.. لكنه لم يكن يعجب أمي، ربّما لأنها تخاف عليه من رد فعل غير متوقع.

لكن الأكيد أنها لم تكن تملك رده، أو معارضته!

والأكثر غرابة : أن كل ذلك لم يكن يغضب أحدا فما يكاد المضروب يفكر في رد الفعل، حتى يكتشف أن الرد في حكم المستحيل وأن الحل الوحيد، هو أن يتقبل الأمر الواقع..

أو يبتعد عن طريقه كلما تيسر ذلك!!

إذ كان أبي يُعد من "الأفندية" ورجالات الحكومة.. مثله في ذلك مثل مهندس الجمعية، وطبيب الوحدة، ومفتش التموين، وضابط النقطة، والمشرف الزراعي!!

وهي مسألة لم ينج منها الحاج فتوح عمدة البلد نفسه، حين ضربه أبي أمام المأمور وجمع من الناس، فسقطت هيبته ولم يستطع الرد أمام المباحث، وعضو مجلس الشعب سيّما والانتخابات على الأبواب! ومع الوقت لم يعد ذلك السلوك الغريب يغضب أحداً.. فالكل يضرب بدءاً من سعدون الأهبل، وانتهاء بشيخ الخفر. والحق أن أبي لم يكن يفعل ذلك بأي عنف أو قسوة بل كان يفعله بلطف شديد، وكأنه يسجل "حالة"، أو يطمع في دخول موسوعة.

ولأن الناس تعودت على ذلك باعتباره من الأعمال الطريفة والتي تثير الضحك، في عصر خلا من كل بهجة، فقد كانوا يدفعون بأحدهم نحو أبي، وينبهونه بأن هذا الرجل لم يضرب منذ يومين فيمسكه أبي من ياقته، ويتأمله بخبث من ضبط لصاً ويهتف به:

- وعشان كده خاسس.. ولونك مخطوف؟

ويضربه مرتين. فإن غضب. وكان من المدخنين. أعطاه سيجارة.. وإن لم يغضب أضاف ما يسميها بـ "ضربة الهرب". وفي جميع الحالات ينتهي الأمر بضحك الطرفين.

وفي حالات أخرى كان أبي يقف أمام أحد البيوت وينادي على صاحبها، فيخرج الرجل بعد فترة متضرراً متعللا بالمرض فيسأله أبي دون أن يلتفت لادعاءاته:

- إنت انضربت النهارده؟

فيقول الرجل الحقيقة، فيضربه ضربة خفيفة وهو يصيح:

ـ يا دمك ياخي.. وجايلك نوم؟

وقبل أن يدخل الرجل ليواصل نومه، يصيح أبي فيه:

ـ أنت بتشتغل ياد يا فلان؟

فلا يرفع فلان رأسه عن الأرض، ويغمغم بانكسار:

ـ لا يا عم الحج!!

فيدفع أبي يده في جيبه، ويدس له بعض النقود و"يشخط" في الرجل قبل أن يرفض، ثم يقول وهو يعطيه ظهره:

ـ لو تقدر تشتغل روح بكره الوسية .. أنا حاكلم الناظر.

فيدخل الرجل شاكرا إلي بيته المنخفض.

أو يقف بجوار شباك فلانة ويدق بعصاته الأبنوسية فتخرج من فورها وهي تتلفح بشالها أو طرحتها:

ـ نعم يا عم الحج؟

فيرد أبي بعد أن يطلب مقعدا:

ـ إنتي يابت سيبتي دارك ليه؟

فترد على الفور: جوزي الله لا يسامحه.. مجابليش هدوم العيد، وكل ما يشوفني بعمل فطيرتين يقولي: خربتي بيتي الله يخرب بيت أبوكي!

ـ هو قالك كده؟!

ـ أحلف على المصحف يابا الحج.

ـ طب البسي هدومك وهاتي عيالك وتعالي.

ـ على فين يابا الحج؟

ـ في السكة حتعرفي.. البسي بسرعة ولبسي العيال.

ـ أوعي تكون موديني عنده يابا الحج.. والله لا ممكن.

ـ بت .. أنا قلت إيه؟

ـ دا حرمني وبهدلني.. أروح النار برجليه يا ناس.

ـ ومين قالك إني حوديكي النار؟

ـ إذا كان كده أروح معاك.. إن شالله لطوكر.. المهم مروحشي لابن فطومة الجلدة.. اللي عايز يمشيني حافية في البلد!!

وقبل أن تفيق من الصدمة يكون أبي قد نادي على زوجها وأمره أن يخرج ليستلم زوجته وأولاده، وما إن ترى زوجها حتى تفكر في الرجوع فيرفع أبي عصاته في وجهها مهددا، ويأمر زوجها أن يرضيها وينسي ما حدث وما يكاد الرجل يحاول أن يعمل رجولته ويحفظ ماء وجهه، حتى يغلق أبي عليه الطريق وقبل أن يدخلا معا يسبقهما الأولاد، ينادي أبي عليه: ويسأله إن كان قد ضربه اليوم أم لا ؟

فيقسم الرجل على ذلك ويصدقه أبي هذه المرة!!

الدرس الثاني

وما يكاد أبي يصل إلى فيلا ناظر الوقف، حتى ينادي عليه دون أن يجامله بأي لقب، وبعد فترة ـ تطول أو تقصر ـ يخرج الناظر متردداً، واضعاً الفوطة على عنقه : عاوز إيه يا حج عبد الفتاح؟

فيصيح أبي ساخرا: أنت بتستهبل يا حضرة الناظر؟

ـ ليه كفا الله الشر؟

ـ إنت مش عاوز تسلم عليٌ ولا إيه؟

ـ إزاي بقي يابا الحج؟

ـ أمال حاطط الفوطة على رقبتك ليه؟.. اسلم عليك ازاي كده؟!

وما إن يقترب أبي، ويعرف الناظر ذلك، حتى يتراجع على عقبيه وهو يضع يده على عنقه صائحاً :

ـ لا وحياتك يا عم الحج.. أنت كنت حتكسر لي النضارة امبارح.

فيضحك أبي حين يلمح زوجة الناظر تضحك على زوجها وهو يهرب كالأرنب وتغمز له بعينها علامة الرضا والقبول فيكتفي بذلك ويصيح في الناظر قبل أن يختفي:

ـ بقولك إيه قبل منسي.. فيه ولد حيجيلك بكره الصبح.. شغله مفهوم؟!

ـ مفهوم يا عم الحج.. مفهوم!

ومـا إن يـدخل أبـي البيـت، حتـى يكـون قـد أنفـق في ذلـك عـدة ساعات لا يكل فيها ولا يمل، بل كان يجد فيها متعة مدهشة، بت الآن أوقن أن وجودي معه، أو اصطحابه لي كان يقلل من هذه المتعة، ويحد من حريته. غير أن ما لم أفهمه حتى الآن ، وهو السر في كل هذه المهابة التي كان يتمتع بها أبي في حياته، ولم نتمتع بربعها بعد وفاته، حيث أصابني الاكتئاب والانطواء وبت استنجد بابن أخي الكبير لكي يضرب ولدًا قطع عليَّ الطريق إلى المدرسة، أو أعطيه كل ما معي ليصارح ابنة الجيران بحبي لها.. فيما تفرّق الأخوة في جهات الأرض،وتزوجت البنات،وشغلن بأولادهن.

وهاأنذا - ما أزال - أسأل وأمعن البصر.. فأتساءل: كيف استطاع أبي أن يكتسب هذه المخاطرة وحب المغامرة، ومن أين أتي بالاصرار والتحدي؟ ولماذا لم يورِّثه لأي منا؟

في البداية واجه أبي بعض المقاومة، حين اشتكاه الناظر لمفتش الوقف، ورفع العمدة تظلما للحكم المحلي، وشكاه ناظر القطارات لضابط النقطة فضحك وصالحهما.

وفي البدايات - أيضا - أراد بعض الشباب(*) أن يكمنوا لأبي فيضربوه بعصي، أو غير ذلك كي يرتدع، لكنه سقط فجأة على جمعهم وصاح في زعيمهم:

- واد يا عزوز.. لك جواب مسجل ياله.. وأنت يابن فتحية قول لأمك تيجي تستلم الحوالة بكره الصبح !!

(*) ربما بإيعاز من العمدة.

فانفض الجمع، وسقط التحالف، حتى حدث ما لم يخطر على بال أحد. بما فيهم أبي نفسه. وجعل من هذا الطقس ضربا من الولاية والبركة، وجعل من أبي وليا يسعى إليه الناس، وتضع يده الكريمة على أقفيتهم طوعا

ففي يوم جمعة. وبينما أبي يجوس في شوارع القرية وكأنه سلطان مملوكي يتفقد رعيته، سمع صوت رجل يصرخ من الألم ويجاهد كي يكبح آلام أحشائه، فوقف أبي وسأل عمن يكون هذا الصارخ ولماذا يصرخ؟.. وما كاد يعرف أنه محمد أبو سماعين حتى تذكر أنه لم يضربه منذ أسبوع، فنادى عليه، وشمر عن أكمامه

. واد يابو سماعين.

فخرجت ابنته دامعة، وقالت إن أباها يموت من الألم وإن "الحصوة" وصلت إلى الحالب، ولا يريد من متاع الدنيا سوى أن يتبول قبل أن يموت! لكن أبي لم يلتفت إلى ذلك، ونادى عليه وكأنه لم يسمع شيئاً

. واد يابو سمعين اطلع عايزك

وحين تلكأ في الخروج نادى على رجلين كانا يركبان حماره وطلب منهما أن يسحباه من قفاه فتصدر أحدهما وتعلل الآخر لكن "شخطة" واحدة من أبي كانت كافية لأن يهرع إلى هناك ويحملاه من تحت إبطيه ويصلباه أمامه وسط سحط أهله وسرفهم كان أبو إسماعيل ممتقع الوجه لا يستطيع أن يقف على قدميه وقد وضع شيئا

في فمه كي يمنعه من الصراخ، وتكاد ركبتاه أن تلمسان الأرض وكانت المفاجأة التي لم تخطر على قلب بشر أن صرخ أبي في الرجلين: سيبوه. فترددا لحظة، وحين اقترب منهما محذرا،تركاه يسقط سقطة هائلة على بطنه،صرخت على اثرها زوجته وأولاده وكادوا يفتكون بأبي، غير أن نظرة منهم إلى أبيهم جعلتهم يتجمدون في أماكنهم، كان البول قد تفجر من المريض كالنافورة وكسح أمامه كل الموانع، ثم رأيناه ينقلب على ظهره فجأة ويضحك شاكراً ممتنا، فيما صنع البول بركة قلوية داكنة حول جسده المسجي: ـ شكراً يابا الحج.. ألف شكر.

قالها محمد أبو إسماعيل بصوت واضح مستريح، فزغردت زوجته وابنتاه، وانكب أولاده على كف أبي مسحا وتقبيلا، عارضين اقفيتهم لنيل بركته وبركاته، وشبهته مسيحية ببطرس الغالي. فيما وقف أبي غير ملتفتٍ إلى ما يجرى، ويصر على أن يضرب أبا إسماعيل مهما كلفه ذلك. فأوقفوه والبول ينشع من جلبابه الصوفي الثقيل، فتقدم أبي بثبات لا يصدق، ووضع يده على قفا أبي إسماعيل هاتفا في تحد:

ـ متهربشي مني تاني.. مفهوم؟ ودس يده في جيبه ودفعها في يد امرأته ، التي ما كادت ترفض حتى منعها أبي قائلاً:

- اعتبريه سلفا!

ثم سمع محمد يكرر الشكر، والدعاء.

ولا نعرف . ابن الحرام الذي أشاع الخبر في كل مكان وقال بولاية أبي وبركته ووضع على كلامه بعض المكسرات والتوابل. فهاج الناس وانقسموا بين مكبرٍ ومصغرٍ، مصدقٍ وساخر

وما كاد أبي يخرج إلى عمله بعد الفجر. حتى وجد مئات الرجال والنساء ينتظرونه أمام البيت وكأنهم نائمون في مولد السيد البدوي. أو ضحايا زلزال مدمر، وسمعنا من يكبّر باسم الله، ومن يصيح بركاتك يا شيخ عبد الفتاح. ومن يطلب منه أن يشفي ابنه، أو يكتب له قصرا في الجنة، أو يسدد ديونه، أو يؤدي المشرف الزراعي، أو يفتك بدودة القطن، أو يبلط دارهم، أو يدر لبن بقرتها أو يطيل شعر ابنها أو يخلصه من زوجته!!

فخفنا عليه من تدافعهم، وانهيار بعضهم تحت قدميه، وخافت أمي على ثيابه الجديدة، وتدافع النساء، ودلع البنات.

لكنه أدهشنا برباطة جأشٍ لا تصدق، وثقة في النفس لا تباري. ورأيناه يُصافحهم فردا فردا. ويتقدم في جمعهم كما كان يفعل عبد الناصر قبل أن يقابل روجرز، والفيس بريسلي قبل أن يقابل ربه!

ولا نعرف ماذا قال لهم حتى يفرقهم بهذه البساطة. وكيف أقنعهم بأن المسألة محض صدفة، لا علاقة لها بأي ولاية أو جباية. وأن كل ما كان يبغيه هو أن يأخذ حقه من محمد أبي إسماعيل لأنه هرب. ولم يعطه "المعلوم"!! وبما أنكم تجمعتم هنا فهي فرصة لأحد

المعلوم منكم قبل أن تزداد ديونكم وتعجزوا عن سدادها. وراح يلمس أقفيتهم ضاحكا ومباركا، فإن اندست امرأة - طمعا في أي جدوى - أبعدها، وقال إنه لا يضرب النساء، ولكنه يتزوجهن فقط. وإن كان يشعر أنهن الأحق بضرب الشوم!

ثم سمعنا من يرفض تواضع أبي، .. فما فعله بلمسة عجزت الحكومة عن فعله بآلاف المستشفيات والأطباء و.. لكن أبي رفض أن يتحول إلى مزار، وقال للرجل إن أردت أن تجاملني فلتزوجني أمك، ولأنها كانت شمطاء وعجفاء، فقد ضحك الجميع وتفرقوا.

الدرس الثالث

كان أبي يفعل ذلك خارج عمله، أما حين يدخل مكتبه فإنه يتحول إلى شخصٍ آخر: يلبس "الكمازات" حتى لا يتسخ كماه، ثم يختبر التليفون، والحبر، والدباسة والخرامة، ويلقي نظرة على أصص الورد والياسمين والريحان ثم يفتح السجل اليومي برقة لافتة للنظر، وبخط جميل واضح القسمات يكتب البسملة، والتاريخين: الهجري والميلادي، وينظر إلى عبد الحميد فيضع الكنكة على السبرتاية ليخرج أبي البن والسكر من درج مكتبه، ويطلب من المساعد أن يعد "الوارد" ويوزعه في "البورد" قبل أن يأتي الموزع بدراجته، ولا يدخل قبل أن يمسح نعليه في الكباحة الحديدية، ويقطف عودي نعناع يحب أبي أن يضعهما في قنينة صغيرة على مكتبه البني الكبير.

ودون أن يتكلم أو تند عنه إشارة، يقوم الموزع بفرز الخطابات ويقسمها تقسيما جغرافيا. الأقرب فالأبعد، ويراعي بعض الأولويات بين العزب والكفور، فالحاج محمد السمادوني في عزبة "الهياتمه" يحب أن يتسلم خطاباته مبكرا كي يرد عليها، والحاجة فتحية الشافعي في "كفر أبو تلات" لا يهمها ذلك. وفتحي بك أبو حديدة - الإقطاعي القديم . يرفض أن يتسلم أي خطابات من الداخل، والمقدس بباوى يقرأ الخطاب أولا قبل أن يعطيه بقشيشا، والعقيد محمود البرعي بعزبة " الطلاينه " يختبر الأختام أولا - لا سيما بعد أن

تقاعد - ليتأكد قبل الاستلام أنه لم تكن هناك أي محاولة لفتحها! وفي جميع الحالات لا يعطي أي بقشيش.. ولا حتى كلمة شكر.. فلا شكر على واجب!

والحاج ممدوح السجيني يطلب من الموزع أن يقرأ الخطاب عدة مرات قبل أن يعطيه حفنتي فول، أو كوزي ذرة!

وأم بسطامي تنتظره دائماً على باب بيتها المعتم الواطئ، وما أن تراه قادما بدراجته، والعرق يتفصد من خلاياه، حتى تطلب منه أن "يفك" لها أي مبلغ وهو - في العادة - مبلغ لا يفك، أو يضع حفيدها على دراجته لبعض الوقت، فإن مرت دجاجة أمامها تركته على الفور، وطاردتها في الطرقات المتربة، ثم تعود لاهثة، فارغة اليدين، وقد نست كل شيء! فإن تأخر عن عمله لبضع دقائق وبخه أبي ومنعه من الدخول، ثم يأمره بري حديقة المكتب، وتنظيف المقاعد، ولا يسامحه قبل أن يأتيه بالجرائد، ويغسل أدوات الشاي، ويكنس البلاط، ويذب الذباب!!

فما زال يذكر ما حدث لعبد الحميد- المساعد- حين عصى أمراً لأبي، فتركه يخطب ويؤكد أنه مساعد على درجة حكومية، ولست خادما لديك، وأنك لا تستطيع أن تنقلني أو تفصلني لأن هنالك إجراءات إدارية وقانونية، ولو كان الأمر بهذه البساطة لخسرت الحكومة كل موظفيها ، وأشار إلى أنه ما جاء إلى هنا إلاّ لأن له ظهرا يحميه، وضلعا ضليعا من أضلاع المصلحة، وحين انتهى من خطبته، سأله أبي - وهو مستلق على كرسيه الدوار - عمن يكون هذا الضلع بالضبط؟

وحين سمع اسمه عرف أنه فعلا ضلع ضليع، ولكن لم يعرف عبد الحميد ماذا حدث بالضبط، ففي صباح اليوم التالي فوجئ بمساعد جديد يجلس على مكتبه، كما فوجئ بأن الموزع - الذي كان يجب أن يقف إلى جواره - يمنعه من الدخول، أو الصياح، ويقدم له ورقة مختومة ما إن قرأها حتى سقط على الأرض!

وحين تجمع الناس وحملوه إلى بيته، عرفوا أنه فُصل من الخدمة وأن "الظهر" الذي كان يستند إليه في المصلحة.. قد حصل على آخر لفت نظر.

كان عبد الحميد يتصور أن آخر ما يستطيع أبي - وأمثاله - أن يفعله هو أن "يدبج مذكرة" يدَّعي فيها ويتمسكن، ويغالط ويتمارض حتى يتسبب في خصم يومين، ولكي يتم ذلك - إن تم - فليس قبل أن يمر شهر أو شهران، حتى تستكمل الإجراءات والقرارات، والإدارات.

وفي كل إدارة تسجل في سركي، وتُسلم بسركي، وتختم بأختام، وتُمهر بتوقيعات، وتدخل أضابير، وبدرومات، ثم تمر على إدارة النسخ والسجلات، والخصومات والسكرتارية وسكرتارية السكرتارية.

كل هذا ليحصل الموظف - إن حصل - على يومين خصم، فماذا فعل أبي ليأتيه في ليلة بما لا يستطيع وزير المواصلات فعله في شهر كامل؟ وماذا قال لهم بالضبط، وكيف أنجز كل هذه التوقيعات والأختام في ليلة؟! ألم يعترض معترض - وما أكثرهم - ألم يصب أحدهم بوعكة صحية أو اجتماعية، أو عطل في سيارته أو ألم في ركبته؟

لم يصدق عبد الحميد كل هذا وسافر - في الصباح الباكر - إلى المديرية فتأكد مما كان يتمني نفيه، إذ ما كاد يدخل على مدير الفرع صباحاً، حتى هب في وجهه وكاد يضربه، وحاول عبد الحميد أن يقسم ويغلظ الإيمان، ولكن المدير صرخ من جديد ولعن وقبل أن يطرده من مكتبه نصحه بأن يأخذ معه من يتشفع له لدي رئيسه، فإن نجح في ذلك فلا بأس لديه ولا اعتراض!

وفي المساء امتلأ بيتنا برجالات القرية ورموزها: طبيب الوحدة وعضو المجلس المحلي، وضابط النقطة، ومهندس الري، والمشرف الزراعي ومن بعدهم أتي المقدس بباوى، وعبد العزيز شيحه مأذون القرية، والحاجة فتحية عضو مجلس الشعب سابقا، وفتحي جابر ناظر القطارات، والكابتن سعيد الخطيب مدير النادي الرياضي، وفي ذيلهم أتي عبد الحميد ساحبا أباه الضرير وكأنه ذاهب إلى مقبرة .

وحين سلموا وجلسوا اصطكت أكواب، وفتحت زجاجات الكولا وأُشعلت السجائر، وتصاعدت الضحكات والغمزات ولا نعرف - بدورنا - كيف استطاع عبد الحميد - ذلك النكرة المفصول - أن يجمع كل هؤلاء وكأنه ربطهم من أنوفهم كالبقر؟!

وبعد ساعة سمعنا الضحكات تعلو، والأكواب توضع على الصواني والمقاعد تتراجع وتحتك بالبلاط، والباب يُفتح وسط كلمات الشكر، والمجاملات والهزر، وسمعنا أبي يعدهم بأنه سيفصله كل أسبوع ليضمن حضورهم، ثم أكد قبل أن يغلق الباب أنه لولا حضور الحاجة فتحية ما استجاب لمطالبهم، فعلت

الضحكات من جديد، وسمعناه ينادي على عبد الحميد، ويطلب منه أن ينسي ما حدث، ويعرف أن من يعمل معه عليه أن يتعلم كل شيء، فنحن نقوم قبل الفجر، إن تأخرنا دقيقة فاتنا القطار فلا نُسلم ولا نستلم، وقد نحمل طردا يجذب الذئاب برائحته، أو اللصوص بمحتواه، وليس معنا ما يحمينا سوي فطنتنا، وقدرتنا على المناورة. بعد أن منعنا البوليس من حمل السلاح، ولم يعد يصاحبنا، وتركنا نحمل نقودا لا نملك منها مليما، بعضها لأناس ليس لديهم سوى الخبز؛ وبعض بعضهم لا يملك سوى الملح!!

وبالتفاتة مني رأيت عبد الحميد يستمع وهو خانع، مكسور الجناح.. يكاد يقبّل يد أبي وهو يعود إلى بيته متسربلا في خوفه!

وحتى هذه اللحظة، لا يعرف الكثيرون ما حدث، وهاأنذا أكتبه ليقرأه أولاد "المرحوم" عبد الحميد، إن كان قد أنجب، وكان بينهم من يجيد القراءة، فأفرج بذلك عن بعض "الوثائق السرية" لبيتنا الكبير، لاسيَّما بعد أن مضي على ذلك أكثر من ثلاثين عاما!!

والحقيقة هي أن: عبد الحكيم الدوماني لم يُفصل من عمله قط، لكن أبي أراد أن يشد أذنه - عملا بمبدأ اضرب المربوط - فاتصل بصديقه القديم - مدير الفرع - واتفقا على ذلك، وعلى صورة قديمة تخص شخصاً آخر كتب أبي اسم عبد الحميد ومكان عمله، وسبب فصله!! أما الموظف الجديد فلم يكن سوى ابن عمي الذي أتي - صدفة - من الإسكندرية ليدعو أبي لحضور زفافه، وسافر في المساء ولذلك لم يصدق عبد الحميد عينيه، حين لم يجد الموظف الجديد

يحتل مكتبه، ولم يجد زميله الموزع يمنعه من الدخول، بل وجد قرارا بعودته على لوحة الشرف، فمال على يد أبي مقبلا وممتنا، لكن أبي سحب يده، وطلب أن يأتيه بالصحف والمجلات، وأن يعرف حدوده، وسعره في سوق الرجال، فترك الموزع يضرب أخماسا في أسداس، فإذا كان هذا ما يحدث مع المساعد الأول، فماذا عمن لا يجيد القراءة والكتابة، ولا يوجد له أى عمل سوى الفلاحة في المزارع، والفقر في الترحيلة؟

لكن السؤال الذي بات يشغل بال عبد الحميد، ويستولى على فكره وكيانه هو: إذا كان الوكيل يملك كل هذه الصلاحيات والحساسيات والمحسوبيات فلماذا لم يشملني بعطفه ومروءته، فيرقيني، أو ينقلني إلى وظيفة افضل، في أي وزارة أخرى؟

أليس من يستطيع أن يمنع ويكبح، يستطيع أن يغدق ويمنح؟ لكن ما كاد عبد الحميد يلمح بذلك حتى كبحه أبي على الفور، صائحا:

- اسمع يا ولد.. ترقيتك تعني انك تبقي رئيسي.. أو على الأقل تبقي زيي.. أنت عايز تبقي رئيسي؟

- العفو يا سيادة الوكيل.

- خلاص. امنع الكلام في الموضوع ده.. مفهوم؟

- مفهوم.

- تعالى هنا..

وبكل ثقة بالنفس، وثبات في العزيمة، ضربه على قفاه، وكأنه يضع خاتم شعار الجمهورية على ورقة بيضاء!!

الدرس الرابع

ما إن يدخل أبي البيت حتى يتحول إلى شخص آخر.. يتحول إلى أب!.. يسأل عمن نام، وعمن ذاكر، وعمن أكل وشرب، وعمن غسل أسنانه. ودون أن يوقظ أحدا، يغتسل ويغير ملابسه بأقل ضجة ممكنة، وبصوت هامس يسأل أختي الصغرى أن تسخن العشاء إن كان هناك عشاء. فتتكاسل البنت، وتضرب الأرض بقدمها محتجة!

- هو مافيش غيري في البيت ده؟

فيضحك أبي بحنو بالغ.. وينتظر أن تأتي بالعشاء ليمسكها من "ترمستها" مداعبا.. لكنه قبل أن يفعل ذلك يكون النوم قد هزمه فنجد صعوبة بالغة في نقله إلى سريره البعيد.. فتشاركنا أمي، وقد نستعين ببعض الجيران، وحين نرافقه إلى هناك يكون التعب قد هدنا وغلبنا النعاس!

وقبل أن يؤذن للفجر، يكون أبي قد صحا من تلقاء نفسه معتمدا على ساعته البيلوجية، وما إن ينتهي من ملابسه وإفطاره، حتى نسمع طرقا على الباب، فنعرف أنه عبد الحميد، وقد حمل بين يديه رسائل الأمس في زعبة كبيرة مخططة بالأحمر والأسود فلا يجيب أبي، ولا يكررها عبد الحميد فنسمع فتح الباب ثم غلقه، وأتخيلهما وهما يخوضان وحل الشتاء؛وطين الحقول البعيدة معتمدين على بطارية خافتة الضوء في طريقهما إلى محطة القطار، وما إن يأتي القطار في

موعده مخترقا آلاف الأفدنة المزروعة بالنرجس والذرة الشامية، هاتكا لملايين القطرات التي كونها الندي على نصالها، حتى يطلق صافرته الخافتة الكسولة التي يعرف أنها لن تفعل أي شيء، ولن تحرك أي كائن، بعد أن تحولت إلى عادة يومية وواجب، يمارسه السائق حتى لا يلومه أحد، ويستقبله الناظر كتحية الصباح وهو نائم على مقعده القديم وقد لاح شاربه. الأشيب المبروم من بين تقاطعات ذراعيه.

وما إن يتوقف القطار بضوئه الخافت وعرباته القليلة - المحطمة النوافذ والنادرة الركاب - حتى يدفع أبي مساعده الدفعة المألوفة، وهو جالس على أول مقعد حجري حيث تقف عربة "السبنسة" فيسلم عبد الحميد ويستلم تحت إشراف أبي الذي يغطي وجهه بكوفية عريضة، ويخفي يديه من برد الفجر في معطف سميك كان قد اشتراه من ضابط ألماني أسره الإنجليز في العلمين ونقلوه إلى الإسكندرية.

كان العمل يستغرق أبي بقدر ما يستغرقه الهزل، فإذا ما سألته عن ضرورة تواجده في عمل من أعمال السعاة، رد الأمر إلى الإحساس بالمسؤلية، إذ على المرء دائما أن يعمل بقدر ما يستطيع، ويلعب بقدر ما يستطيع، فهو أول من يعرف أن البلدة صغيرة بطبعها، وأهلها "مقطوعين من شجرة" لهذا وذاك لم تكن الخطابات أو الطرود تأتي بالكثرة التي تستلزم أن يحملها على كتفه، أو يخوض من أجلها الأوحال والبرد والظلام.

فكم من أيام لم يستلم فيها أي شيء ، ولم يسلم أي شيء، وكم من أيام لم يأت فيها سوى خطاب أو خطابين.

وعلى الرغم من أن الجواب "يبان من عنوانه" بالفعل.. إلا أن أبي كان يصر على "انتظام" العمل، إذ كان يشعر أن الحركة مادامت لا تأتي بعكسها فهي مطلوبة. إذ لابد لهذا العالم من حركة منتظمة، حتى تنتظم حركة الحياة والأحياء رغم أنه يعرف أن هذا الخطاب الذي خاض الظلام والأوحال من أجله - هو ونائبه - قد لا يزيد عن "شوية سلامات" ومشاعر زائفة، أو مُبالغ فيها، لا تكتفي بسلام واحد إلى فلان الفلاني، وإنما تتبعه بألف ألف مليون سلام، وعادة ما تنتهي بعدة طلبات لا تستحق المائة مليون سلام، إذ لا تزيد عن طلب كيلو مشبك، أو قطعة قماش مقصب، أو شبشب بلاستيك، أو مفرش لعروسة، أو "باكيت" معسل من السوق الحرة!

الدرس الخامس

كان أبي يعرف يوم تقاعده باليوم والدقيقة، لكنه في قرارة نفسه لم يكن يشغل باله بذلك، ليس لأنه يتوقع أن "يعملوها" ويمدوا خدمته مكافأة له على إخلاصه واجتهاده، ولكن لأن هناك أكثر من عام ونصف فلماذا يشغل نفسه بما يمكن أن يحدث بعد عام ونصف؟!

لم يكن تفكيره يفتقر لبعد النظر، ولا التخطيط للمستقبل القريب، ولكن لإيمانه بأن على المرء أن يعيش لحظته، ويستطعم ما بين يديه، بدلا من أن يندم على البعيد، أو يتباكى على المستحيل.

وما دام الوصول إلى المركز لا يتم إلاّ عبر الهوامش.. كما يقولون، فمن الحكمة الاّ تنسينا الغاية متعة الاستمتاع بالوسيلة! ولا ينسينا الجوع متعة المضغ والبلع والتذوق!

ولكن أن يحدث ما حدث، هكذا، وفجأة، بل وبكل هذه الدراما القدرية الناقضة للتوقعات، فذا ما لم يكن يخطر على بال أحد.

ففي صباح غير كل الصباحات، فوجئ أبي بخطاب مختوم بخاتم المصلحة، يهنئه بترقيته، ويدعوه لأن يتفضل - من باكر - باستلام عمله الجديد كمفتش بالمديرية، وأن يسلم - حامله - ما في عهدته بدءاً من الغد!!

في البداية شك أبي في نظارته الطبية التي لبسها قبل أسبوعين، فخلعها بهدوء وتأمل الخطاب جيدا فوجد أنه - غير قانوني - ثم تأمل "حامله" فوجده غلاماً في عمر أحفاده .

أشار له بالجلوس فجلس، ثم سأله الحكاية فلم يجبه بما يشتهي، لكنه عرف أن الهيئة قد قررت أن تستعين "بالشباب". فضخت في مكاتبها ببعض خريجي معاهدها المحظوظين، أولاد المديرين والمفتشين وأصحاب السطوة والنفوذ!!

- "طظ" فيهم جميعا!!

كان هذا هو أول رد فعل أبداه أبي.. فهو يعرف أنه سيحال للتقاعد في يوم ما، ولكن ما لم يكن يعرفه أو يتوقعه انه لم يعد من الشباب!!

- من يقرر ذلك؟! المصلحة؟ اللوائح؟! مخلوق يجلس على مكتب؟! طظ!!

صحيح أن الإنسان قد يُوجد بقرار، وقد يعمل بقرار، أو يتزوج بقرار أو حتى ينتحر بقرار. لكن أن يترك الشباب بقرار.. فهذه نكتة سخيفة لا تضحك سوى المجانين!

كانت الصدمة أكبر من أن تستوعب.. وأثقل من أن تحتمل. فقبل ساعتين اثنتين - وعلى مدى ثمانية وخمسين عاما وستة أشهرا وأسبوعين - لم يكن أبي يتوقع أن يغادر الشباب بقرار، وأن يدخل ظلام الشيخوخة بقرار. كان يعلم - نعم - أنه سيخرج في يوم ما... ولابد لهذا الخروج من "قرار"، لكنه كان يشعر بأنه "مجرد قرار" لا يختلف كثيرا عن أي قرار يومي يتخذه المرء، كأن يقرر - مثلا - أن

يشتري جريدة، أو يذهب إلى حديقة، أو ينام مبكراً، أو يمتنع عن شرب القهوة، لكن أن يُقرر له، ويصبح لزاما عليه أن يرضخ ويستكين فهذا هو المستحيل!

كان على الوقت أن يتوقف قليلاً، قبل أن يعاود أبي النظر إلى "الوكيل الجديد"، وكان عليه أن يتوقف طويلا.. طويلا، قبل أن يكتب رفضه على ظهر القرار ويسلمه للوكيل بعد أن شرب قهوته!

فإذا كان للمصلحة الحق في أن تفعل ما تشاء، فعليها أن تلتزم بالأصول وتراعي ما شرعته بنفسها..

فهو لن يسلم علبة سجائر لشخص معلوم أو مجهول، لكنه سيسلم مرتبات، ومعاشات، ودفاتر، ودمغات، وأذونات، وبطاقات سيسلم بشراً وعملاء وخفراء وموظفين ومكاتب وأشياء، ولابد لكل ذلك من لجنة تنبثق من لجان، ثم تتمخض هذه اللجنة وتتمخط، وتبحث وتسهر، وتأكل وتشرب، وذلك بعد أن "يتأكد" من شخصية الوكيل، ودرجته، وأن يوقع أمام الجميع بصحة الاستلام، ثم يمضي وقتا - يحدده ذكاؤه - ليتدرب ويتعلم، ويقف على أخبار، وأسرار، ويخلق مشاكل، ثم يحلها، فهكذا يكون العمل، وهكذا تكون الأصول!

ثم لابد أن يقام حفل - تكريم واستقبال - لشخص : لم يمد يده على مليم من ملايين المصلحة، وقدم العام على الخاص، والآن على الغد.

نعم... لابد من حفل كبير: تراق فيه المياه الغازية، والبلاغة التقليدية، وتهان فيها الجاتوهات وقواعد النحو والشعر! ويمتزج خلاله عرق الأكف، والأصداغ بالمعانقات، والعقول بالمؤامرات.

فهكذا تكون الزمالة.. وهكذا تكون الأصول، أما أن يأتي غلام يضع سلسلة على صدره، و"فازلينا" على شعره ويلبس قميصا مشجرا، وبنطالا مدورا، وسواراً حول معصمه؟.. فهكذا تكون المسخرة، ويكون الديسكو والخنفسة!!

لذلك لم يعرف أبي ماذا يقول.. وبماذا يناديه بالضبط وهل هو في حضرة امرأة متنكرة، أم مشروع رجل فاشل، وهل هذا من سيجلس على كرسيه، ويشم ريحانه، ويشرب من فنجانه، ويعامل الفلاحين بالعدل، ويستلم من قطار الفجر؟!

لكم شعر بالإهانة.. إذ كان يظن أنه أكبر من ذلك. وكان يتوهم أن من يأتي بعده، لابد أن يكون على شاكلته.. في مثل سنه وقدره ومسؤليته.

فحين كان في الإسكندرية كان أبو جمال عبد الناصر مرؤسا لديه... وحين نقلوه إلى هنا، تصور أنهم فعلوا ذلك لكفاءته، وتوهم أنهم لم يجدوا من هو أجدر منه، إذ كان يوقن أن هذه المكاتب عبارة عن: "سفارة صغيرة"، وعلى "السفير" دائما أن يتخذ قرارات، ويشكل لجانا ويتخذ احتياطات ويعتمد بدائل.

أما الآن فعليه أن يعرف أنه مجرد "أراجوز صغير" خدعوه بقطعة شيكولاته لينعموا بالرومي، ويمزمزوا بالكافيار، وأنه - ويا للخجل - لم يكن سفيرا كامل السفارة، وإنما كان "يقوم بعمل الوكيل"

حتى تداركوا الأمر، وحسبوا الحسبة قبل أن يتخلصوا منه بترقية، وهم يدركون أنها آخر رشوة في جعبتهم وآخر "ركلة إلى أعلى"!

أما ما حدث بعد ذلك، فعكس كل ما توقع أبي .. فقد قالوا له بالعربي الفصيح ما معناه : إنك لم تكن سفيراً ولا يحزنون بل . وهذا تشبيه لا يغضب أحدًا - مجرد كلب حراسة.. على "شونة" لم نعد نحتاج إليها، وأن ما تتوهمه من أهمية ومسئولية وفول بالتقلية مجرد وهم، لا نعترض عليه إذا كان للاستهلاك المحلي.. أما وقد جد الجد، ووضُعَ الحدُ على الحد.. فنحن على استعداد لنضحي بأظافرنا من أجل أصابعنا، وبأصابعنا إذ كان لابد لإنقاذ أكفنا. وأكفنا إذا كانت بديلا عن سواعدنا .

إذن فقد انتهت المسرحية.. فلا تغتر، وسلم تسلم.. والسلام ختام، ولا أظن أن أبي كان يمكن أن يشعر بأي ألم لو جاءوا بسكين باتر ومزقوا شريانه، لذا لم يعد أمامه إلاّ أن يستسلم بهدوء، فحرص على أن يكلف عبد الحميد بمأمورية ما، كي لا يعرف ويشمت، وقضى الليل في تبديج المذكرات وترتيب الأصناف والتكاليف، وكأنها معاهدة صلح أو وثائق استسلام، لذلك كانت دهشته ساحقة حين وقع الفتي على كل ما قدم له، وكأنه يستلم "ساندوتش شاورمة" أو "كيس شيبسي" فقد توقع أبي أن يعترض الفتي على ضياع الدباسة، أو فساد الختامة، أو غياب السجادة.. كما لاحظ أنه يأتي بسيارة، وهو الذي طمع في دراجة، وعرف أنه ابن مسئول بالإدارة، وأنه ما جاء هنا إلاّ ليثبت أنه عمل في مجاهل أفريقيا، وأحراش السافانا، حتى يستحق المنصب الكبير الذي يُعد له، وأدرك أبي أنه رُكل إلى

أعلى! وهي وسيلة تتخلص بها الحكومة من بعض موظفيها، كما تتخلص من خيولها - برصاصة الرحمة - فترقيهم، لكنها تركنهم وتسحب صلاحياتهم بحيث لا يستطيع "المدير الكبير" أن يطلب قهوته من ساعٍ دون أن يشفعها بكلمة "لو سمحت" أو يسبقها بعبارة "من فضلك" فإن نسيه الساعي أو تجاهله، غمغم بخفوت وانكسار: حصل خير.. حصل خير!!

●

أما ما حدث بعد ذلك، فقد سمعته من عدة مصادر بعد أن جندت بالقوات المسلحة، وبات عليّ أن أنام في الصحراء، وانبطح تحت الجبال والهضاب، وانشغل بحياتي الجديدة، لا سيّما بعد أن مات عبد الناصر وزادت التحرشات على الجبهة الشرقية.

وفشلت الوساطات والمبادرات. وكان ذلك يعني بالنسبة لي -- كجندي مؤهل في سلاح المظلات - أن أزور أهلي كل شهرين. ومع الوقت. وسخونة التصريحات. بدأ هذا الأمل يخفت ويتضاءل، لكني - بالخطابات - وقفت على جانب مما حدث لأبي، وعرفت أنه فقد ابتسامته، وقل وزنه، واضطرب نومه، وتوترت أعصابه، وردود أفعاله. لكن الغريب في الأمر أنه كان يصحو في موعده المعتاد، فيدق على بيت عبد الحكيم ويرافقه إلى قطار الفجر، ثم يركب إلى عمله في طنطا.. وهناك ينتقل من مقهى إلى حديقة، حتى يبدأ العمل فيجلس من الثامنة حتى الثالثة بلا عمل، ثم يعود إلى المقهى حتى يخيم الليل، ويعم الظلام، فلا يراه شامت، ولا يشعر به حاقد.. بعد أن عمت الفضيحة، وسقطت الهيبة، وتهافتت بعض الفتيات

المتعلمات على الفتي الجديد طمعا في ماله أو وصاله.. وسمعنا عما فعله بالمكتب والحديقة - أو بمعنى أدق - ما فعله أبوه له من دهانات وتوسعات وتغييرات شملت كل الأساسات والأساسيات وكيف يعامل الناس دون أن يضربهم على أقفيتهم، ولا يغازل نساءهم أو يتدخل في مشاكلهم، فهو يأتي مرة أو مرتين في الأسبوع، وعلى من له حاجة أن ينتظر قضاء حاجته، وما لا يُقضي يوم الاثنين يقضي يوم الأربعاء وما لا يقضي يوم الأربعاء، يقضي يوم الاثنين.. ما الفرق؟ الوقت معنا.. والعمر طويل.. وعلى من ينتظر نضج القصب حولين كاملين أن ينتظر حضور الوكيل كل أسبوع أو أسبوعين. ولا داعي للعجلة.. فقد عاش الناس آلاف السنين دون أن يعرفوا "البوستة"، ثم زرعوا وتناسلوا وتفرعوا دون أن يهمهم أمرها. أو مشاكلها.. أو وجودها من عدمه! وبسرعة البرق شم أبي رائحة عبد الحميد فتوقع كل شيء، وكان على حق فمع الوقت بدأ عبد الحميد يسيطر على كل شيء، وبدأت قدم الوكيل الجديد "تخف" شيئا فشيئاً.. وعبد الحميد يضبط إيقاع المكتب على ساعته، فيفتحه وقتما يريد، ويغلقه حينما يصيبه الملل، وقيل إنه كان يفتح بعض الخطابات، ويستمع لبعض الشرائط، ويستحوذ على بعض التحويلات، ويغالط في تقدير الدمغات، وإرجاع كسور الريالات والجنيهات وكلها إدعاءات قد تكون صحيحة وقد لا تكون، لكن المؤكد أن الوكيل الجديد كان يحمي عبد الحميد، ويبرر أفعاله ليس حبا في شخصه فهو مجرد "فلاح متعلم"، ولكن لأنه يريد أن ينهي رحلة السافاري هذه بأكبر قدر ممكن من

الغزلان، وأعز قدر ممكن من البطولة، حتى يرضي "بابا" و"أنكل" و"تانت خيرية" في مصر الجديدة:

ولم يدر أبي أنه وضع يده في "عش الدبابير" إلاّ حين طلب من رئيسه المباشر أن يتحقق بنفسه مما سمعه من تجاوزات في مكتبه القديم.. فقد تحجج الرجل وتعلل، ولَح، ثم صرح:

- يا .. يا عبد الفتاح بيه.. أنت فاهم كل حاجة.. بلاش مشاكل وأنت فاضل لك شهور و..

وحين أصر أبي.. وشخط ولعن، تسلل الرجل إلى مكتب المدير العام فاتصل المدير بالسكرتارية، وقبل أن ينتهي ذلك اليوم الأسود، حصل أبي على مأمورية لمدة أسبوع يراجع فيها إجراءات العمل والسلامة في مكتبه القديم!!

الدرس السادس

كانت حرب الاستنزاف قد توقفت، حين أتاني خطاب التجنيد وأخطرني بضرورة تسليم نفسي خلال أسبوع من تاريخه.

وشعرت بأبي يحتضنني لأول مرة في حياته وكأنه يدشن رجولتي ويعبر بي ذلك النفق الذي يربط بين الصبا والرجولة.. ولابد أنه تذكر حفيده الذي سحقته دبابة في حرب حزيران، لأنني رأيت دموعا تكاد تترقرق في عينيه!

كان كل شيء حولنا قد بدأ يتغير بالفعل، مات عبد الناصر، وانطفأت أضواء كثيرة، وشعر الجميع بانكسار الروح، وابتآس الجسد.

لكن ما قد يحسبه المرء بعقله، قد يهدره القدر ببطشه!! ففي الوقت الذي كان فيه أبي يراجع الحسابات ويتصيد التجاوزات ويحيل الوكيل الجديد للنيابة، وعبد الحميد للرقابة، كانت أخبار أسري وإصابتي قد وصلت إليه، لتهدم آخر حصونه، فترك كل شيء، وركب القطار إلى الهلال الأحمر والصليب الأحمر، وقيادة الجيش، لكنهم لم يفيدوه بشيء. فعاد وهو يشعر بإهانة تثقل خطوه، وتظلم الدنيا أمام ناظريه.

وقبل أن يحال للتقاعد بشهور، كان قد دخل في صراعات ومشاحنات لا تنتهي مع رؤسائه ومرؤسيه، فتسبب في جزاءات،

وتعرض لتهديدات، ودخل في متاهات ومساومات، فتصلب في مواقف كانت تستدعي المرونة، وتساهل في مواقف كانت تتطلب القطع والحسم، لذا كان تقاعده حلا من الحلول، فأعطوه الشهرين الأخيرين إجازة ليجلس في بيته وتهدأ أعصابه!

لكنه بعد يومين بدأ يعاني من الفراغ والتمارض، فقد طلبوا منه أن يسبح ضد فطرته، ويقف ضد ما يريد ويرغب، فلم يحدث أن توقف أبي عن العمل أبدا، وكأنه موتور، إن توقف فسد، وفقد صلاحيته وبدلا من أن يصبح التقاعد نهاية للمعاناة، أصبح بداية لها..

وبدأت انفعالاته تجاه بيته تأخذ طابعا حادا وعصبيا، فبات ينفعل على أمي، يضرب أخوتي وأخواتي، ويسهر خارج البيت، ويسرف في تناول المنبهات ثم جرب الحشيش والتدخين، وذات ليلة عصيبة أتى محمولا على الأكتاف، وقد تمزقت ثيابه، وتسلخ جلده، وعرفوا أنه كاد يلقي بنفسه تحت قطار سريع، لكن الله لم يرد له ذلك فأنقذه منقذ، ولم يمنعه من الانهيار سوى ابنه الأكبر، فدعاه للعيش بالإسكندرية ووضع شقته على البحر تحت تصرفه، ولكي يضمن مكوثه، واستقراره،ملأها بكل ما يشتهي، وابتاع له سيارة جديدة، ودعاه للعمل معه بالجمارك، بل وعرض عليه الزواج - ولو على سبيل المزاح - لكنه رفض كل ذلك، وأراد أن يعود إلى بيته وأعماله!

- أعمال إيه يا والدي.. إنت مش طلعت معاش؟

- باقي شهر ونصف!

- خدهم أجازة واقعد معانا.. إيه اللي ناقصك؟

وهناك لم يستطع أبي أن يكمل أسبوعا آخر.. ولم يعترض أخي الأكبر على ذلك.. بعد أن شكت زوجته من تدخلاته، وضربه لابنها الوحيد حين رآه يشم الكوكايين في شقة مستأجرة.

فعاد أبي منكسراً وكأنه قائد خسر كل جيوشه، وعاد حافيا بملابسه الداخلية!

ثم أشيع أنه راح يبحث عني في متاهات الجيوش والمعسكرات.. وبات يتردد على المساجد، ويغشي المقابر، ولم يعد يكلم أحدا .

وشيئا فشيئا، بدأت الأسماء والمسميات تختلط في ذهنه فينادي على محمود وهو يقصد محمد، وعلى سعاد وهو يقصد قدرية وبدأ سمعه يضعف، ونظرهُ يكل..

وجاءت الضربة الأخيرة فذهبت بنصف عقله، حين اعتقل البوليس السياسي حفيده المحبوب بتهمة الانتساب لحزب شيوعي، وقتل آخر في مواجهة بين خليته الدينية، وشرطة مكافحة الإرهاب.

وسمع عمن تركت بيتها وهربت مع عشيقها، ومن أصيب برصاصة في قدمه حين طاردته جمارك بورسعيد، ومن كان يخطط لخطف طائرة مدنية أو سفينة حربية!!

كان كل ما حوله قد تغير فجأة، وتفسخت أوتاد القيم التي عاش في إهابها، ففقد القدرة على الفهم والتكيف. وكأنه سيدنا نوح حين تفرق أبناؤه، وتفسخت روابطهم.

ولم تعد حكاية المرأة التي "أكلت ذراع زوجها" مثار سخرية وترهيب وعظة تباع في الشوارع، بعد أن ظهر في الصحف ما لا يصدقه نظر، أو يعقله عقل، عن المرأة التي قتلت زوجها وابنها لتخلو

بعشيقها، وعمن قتل أخته ليستأثر بالميراث، ومن قتل أباه لينفرد بزوجته الثانية.ومن قتل جاره من أجل حزمة حطب، ومن قتل صديقه لأنه لم يجد ما يشغله!!

وعلى الصفحة الأولي تواترت أخبار الانقلابات على نظام الرئيس المؤمن، الملهم، وتناثرت أنباء عن أهل الثقة والخبرة، وأهل الحل والعقد، والإسلام هو الحل، وثورة التصحيح، ومراكز القوى. وبطل الحرب والسلام، وعام الحسم والرخاء .

وبعد أن أكمل أبي خروجه من الخدمة بشهر واحد، كان قد فارق الحياة!!

ويقال إنه لم يوص بشيء، ولم يظهر على ملامحه ما يوحي بالفرح أو الحزن.. وكأنه يترجم مرحلة رمادية ـ وفاترة ـ من تاريخ الوطن. لذلك لم يدرك مظاهر التدين والتأسلم والكراهية التي تسللت إلى النفوس وطفت على الجباه، فترحمت على عصر الإبل والجواري. واحتكرت لنفسها كل الصواب والحقيقة، وحين طلبت السلطة ولم تنجح فجرت الشوارع والأتوبيسات والمقاهي، وباسم الدعوة لصيانة الأخلاق، فسدت الأخلاق.. وتراجعت قيمة العمل والتعاون والمواطنة، وامتلأت الشوارع بغلمان ملتحين يفخرون بثيابهم الباكستانية والأفغانية القصيرة، ويفتون في كل مجال، ويجيبون على كل الأسئلة، إلا سؤال التقدم. فيما امتلأت الشوارع والحارات بأطفال حفاة شبه عراه .

لا يعرف أحد آباءهم بالضبط، ولا من أين جاءوا؟ ولم يستغرق الأمر وقتا طويلا لأدرك أن كل ما حولي قد تغير بالفعل، الناس

والبيوت والشوارع، حتى الهواء تغيرت رائحته. وزاد الضجيج والزعيق والخلافات، أما الكهرباء فقد دخلت البيوت والحارات، لكنها لم تدخل القلوب والعقول، وامتلأت المآذن بالميكرفونات الصاخبة من كل ناحية، فلم نعد نراهن على طلوع السلم الحلزوني مرتين!

كانوا قد تبادلوا الأسرى.. فوجدتني أعود مثقلا من سجن العدو إلى سجن الوطن.. على جسمي ثياب قديمة، وفي قلبي هم ثقيل.. وفي بيت جدي احتضنتني أمي ورمت على كتفي بهموم لا تحتمل، فيما انتظر إخوتي وأخواتي دورهم. فلاحظت أنهم جميعا قد كبروا، وبدت إمارات الزهد والترمل على وجه أمي.. زهد العاجز الراضي، الذي لا يملك حيلة، وليس لديه ما يضيفه، أو يجيب به على أحد.

ومنهم عرفت بموت العمدة، وتفكك إمبراطورية العمد، بعد أن فقدوا دورهم في المحليات والسلم الاجتماعي في مصر كلها، ولكن ما لم أكن أعرفه أن أولاده الكثار انقضوا على أملاكه كما تنقض الضباع على جيفة فمزقوها فيما بينهم، قبل أن يتشتت جمعهم، وتغويهم نداءات المدن والعواصم، وجاءت الفيلا وما حولها من نصيب أكبرهم، فوكل "ابن هنومة" لبيعها بطريقته وإرسال النقود إليه بالقاهرة.

وابن هنومة - لمن لا يعرفه - سمسار "صايع ضايع" سقط في الإعدادية، فسافر إلى ليبيا والعراق والأردن وعاد غير ما ذهب، حيث تعلم كيف يبيع الهواء، ويغربل شعاع الشمس، فكان أول ما فعله أن وجد حيلة لطرد أمي من الفيلا على اعتبار أن المرحوم لم يحرر عقدا رسميا يجيز له توريث "العين المؤجرة"، وأتي بعدة نصوص قانونية، ثم

تشفّع لأخوالي وخالاتي بوصفها أملاك أيتام . وأما اليتيم فلا تقهر . وليس من العدل أن نسكن في فيلا قوطية مسورة بأربعة جنيهات في الشهر، في زمن أصبح فيه ساندوتش الفول بجنيهين! فضغط أخوالي على أمي وأقنعوها بالعودة إلى بيت أبيها منعا للمشاكل وابتزاز المحامين وبطء القضاء!!

وتنازلوا لها عن بعض حقوقهم ، فنقلوها إلى بيت طيني معتم مهجور، كان أبوها يخزن فيه القطن والغلال!!

أما ابن هنومة . الذي كان يعمل أبوه خادما في القصر، ومات مبكراً . فكان أول ما يهمه هو هدم القصر، وكأنه يهدم سجن القناطر.. كما هدم الفرنسيون سجن الباستيل . فأتي ببلدوزر عفي، وأزاله من الوجود!! ليجد من يهلل له، ومن يثني على ذكائه ووطنيته، ومن يشجعه على إزالة النخيل وأشجار الزينة، مادامت لا تطرح بلحا يُمضغ، أو زهرًا يُباع.

أما الذكري والسكرة والفكرة، فقد رحل أصحابها غير مأسوف عليهم!

ولم تمر أشهر قليلة، حتى جاء النفطيون بحقائبهم، وشيلانهم، وغترهم، فاشتروا الأرض، وزرعوها بيوتا أسمنتية تشبه المفارخ، لها سلالم حلزونية تشبه سلالم المآذن، وأبواباً حديدية مصمتة تشبه بوابات السجون وغرفا ضيقة حتى تستوعب أولادهم الحفاة، الذين زرعوا "بذرتهم" وجروا ثانية إلى بلاد النفط، وأصبح الواحد منهم لا يعرف أبناءه . وهم يلعبون مع أقرانهم في الشارع . بعد أن تشابهت

أشكالهم وأفكارهم، ولم يعد أحد يعرفهم سوى أمهاتهم اللائي كن يقدمنهم لأزواجهن المتعبين:

ـ دي تفاحة، وده بيجو، ودي نحمده، وده عادل، ودي لوزه.. و.. وتظل تعدد وتحدد وتمدد حتى يتذكر الزوج أو يضحك أو يزم شفتيه، ويعرف أن "تفاحة" هذه أتت حين عاد بكرتونة التفاح، و"بيجو" حين عاد راكبا سيارة بيجو من المطار، و"نحمده" حين أتى بما يكفي لبناء البيت وكاد يحمد الله على ذلك، و"عادل" حين ظلموه في الجمارك، وجاءت "لوزة" بعد السفرية التي عاد منها بنصف كيلو لوز وصنيبر وكاجو!!

أما "سطوحي" فلا يعلم ـ أو يذكر ـ عنه شيئا.

●

في طريقي إلى المقابر عرجت على "البوستة القديمة" فانفطر قلبي.. كانت الجدران قد تداعت وكأنها تشيخ مثلنا، وغارت السلالم في الأرض الرطبة وأزيلت الأشجار والزهور، ووجدت العناكب مرتعا لها في كل الأركان..

ومع ذلك خُيّل إليّ أن أبي مازال في مكتبه يراجع الحسابات والخطابات، ويعتمد التوقيعات ودفاتر التوفير، فيما ينهمك عبد الحميد في إعداد القهوة ويقدمها مشفوعة بكوب ماء نظيف لا مع الحواف. ولم يوقظني سوى نعيق غراب بعيد، فأيقنت أن التاريخ ـ بالفعل ـ لا يعود للوراء، وأن البريد التقليدي ورجل البريد التقليدي قد فقدا دورهما في عصر الإنترنت والفضائيات والإميل، كما فقدت الطرابيش والقباقيب دورها.

كانت شعارات المرحلة مكتوبة على الجدران بخط أسود فاحم، أو أحمر دام تدعو لمخاصمة الدنيا ومن فيها، وتدعو المرأة للعودة إلى البيوت. وعبر دروب المقابر التي تحفها الأشجار وتنعق على أفرعها الغربان وعلى أرضها الزنابير والسحالي توقعت أن يستقبلني أبي فاتحا ذراعيه:

- أتأخرت ليه يا راجل.. إخص عليك.. كده تشغلنا عليك؟ لكنه لم يظهر، ولم يفتح ذراعيه، فأيقنت أنه قد مات بالفعل، وهالني ذلك الاكتشاف ورج قلبي.. ليس لأنني لم أكن أتوقعه وإنما لأنه أطاح بكل أمل يمكن أن يراودني!

فعلي قبره الندي، المحاط بأشجار التوت والصبار، رأيت التراب نديا.. وكأنه دفن منذ ساعة! فداهمني شعور عميق باليتم والخسارة، وأدركت بأنني فقدت من كان يحميني في هذه الدنيا.. ويشعرني بأنني - مهما كبرت - مازلت صغيراً. من حقي أن ألعب وأجري.. وأخطئ، وأجد - دائما - من يعذرني، ويشعرني بأنني على حق في كل المواقف!

فأخذت طريقي إلى البيت وكأنني أحمل كفني على صدري، وهناك عرضت على أمي أن نبيع كل شيء ونعود إلى الإسكندرية فتعللت، وأخطرتني بأنها لا تستطيع أن تعيش بعيدا عن أهلها.. فقد راح من كان يربطنا ويحمينا من بطش أولاده الكبار، وسمعتها تسألني عمن بقي لها، أو بقي لي هناك؟ فسافرت وحدي قبل أن تطلع الشمس، وفي الإسكندرية ذهبت لابن أبي، وطلبت مفتاح فيلته بكينج مريوط، فأعطاني مفتاح شاليه العجمي.

وهنـاك رأيـت آخـر كـوب شـاي تركـه أبـي .. آخـر جريـدة لم يفتحها، فأدركت أنه كان آخر الضيوف وأول المغادرين .

خرجت إلى البلكونـة، فأخـذني منظـر البحـر وهـو يلـثم الرمـال، وقد خلا الشاطئ من الرواد والسابحين، بعد أن عاد الناس لأعمالهم، والطلبة لمدارسهم، والنوارس لعرض البحر .

وعلى امتداد البصر، رأيت الشباك تُنصب لطيور السمان المهاجرة وسمعت صخب الصيادين ولغطهم وهم يخلصون الطيور من شباكها فتمنيت أن أنزل على الفور، وأمزق هذه الشباك.. وأطرد كل هؤلاء القراصنة، لكن شعوراً باليأس ظل يلازمني ووجدتني ألوم السمان على غبائه وقابليته للأسر.. وأشبهه بفراشة حمقاء لا تفرق بين النور والنار!.. ووجدتني أسأل: "ألم يكن بمقدورها - وقد قطعت آلاف الأميال - أن تنزل على بعد مترين آخرين، أو ترتفع عدة أشبار؟! ثم عذرتها حين تذكرت أسري وابتآسي، إذ كنت انظر من نافذة في حجم الكفين، فأري الغيوم تعبر السماء إلى قارات جديدة، وأنا رهين زنزانة ضيقة لا أستطيع الفرار، ولا أملك سوى الحلم بالنجاة..

بعد ساعتين اتصل أخي الكبير من مكتبة بوسط البلد، وهنأني بسلامة الوصول. ثم سمعته يعتذر عن استقبالي في بيته لضيق الوقت، وقبل أن ينهي المكالمة سألني إن كنت أملك "موبايل" فنفيت حاجتي إليه، فقال إنه سيرسل سائقه الخاص بما يلزم.. وكانت هذه هي آخر مرة أسمع فيها صوته.

وحتى لا يداهمني المرض، غادرت الشالية، وذهبت إلى البحر وهناك ظللت أخوض وأغوص، حتى وصلت المياه إلى كتفي، وسمعت

مـن يحـذرني مـن بعيـد، وينتظـر أن أعـوم وأطفـو.. لكـنني لم أنظـر خلفـي، كنـت مخـدراً، مـأخوذا بمـا أري وأحـس، وكـان المـوج رخيـا خريفيا رقيقـا، فأتـاني الوشـيش حثيثـا كـالموت، سـرمديا كـالحيـاة، ومـا إن وصـلت الميـاه إلى رأسـي حتـى شـعرت بـأنني وصـلت إلى بـرزخ يربط بين الموت والحياة، فصرخت و"شرقت" وبحثت عن قشـة تنجـدني ولكني شعرت بمن يسحبني من عنقي، ويشدني إلى البر، وأنا أركـل وأرفـض، أبعـد واقـترب، أضـحك وأبكـي، ومـن بـين رموشـي المثقلـة كنـت أراهـم يلتفـون حـولي، ويخلصـونني مـن يـد عزرائيـل.. كمـا يخلصون السمان من شباكهم، وأشعر بالمياه المالحة تخرج مـن فمـي مالحة كالحيـاة مـرة كـالعلقم. واسمعهم يتسـاءلون عمـن يعـرفني، أو يعـرف مسـكني فأشـير إليهم إلى حيـث أسـكن، فيحملـونني إليـه.. وتفيدهم خبرتهم الطويلة في مثل هذا الوقت من السـنة في معرفـة بعض الدوافع، وأنني لست من سكان الحي، وربمـا كنـت أعـاني مـن أزمـة عاطفيـة، أو رسـوب في الدراسـة أو خيانـة زوجيـة. وغيرهـا مـن أسـباب تضايقهم وتؤثر على رزقهم ورزق أولادهم. حيث يـأتي البـوليس والنيابـة وتُطلب البطاقات والتراخيص، ويبدأ التحقيق والتدقيق.

لذلك حملوني بسرعة إلى الشـاليه وأرقـدوني علـى السـرير وأغلقـوا الباب خلفهم.

وقبل أن ينتصف الليل شعرت بمن يوقظني بفظاظـة، فقمت مرتعبـا لأجد رجلا فارعا يلبس بذلة رسمية، ويضع كابا تحت إبطـه يرشـقني بنظراته المريبة.

وقبل أن أسأله عمن يكون، بادر بإخطاري بأنه سائق فتوح بك أتي "بالأمانة". واعتذر بشدة لأنه اضطر لأن يفتح الباب بمفتاح آخر، بعد أن طرق الباب حتى كاد يكسر، ودق الجرس حتى كاد يتلف!! وظن أنني ضللت الطريق أو حدث لي مكروه، ففي الأسبوع الماضي وجدوا قتيلا في شقة مجاورة، وقبل ذلك بعدة أيام، وجدوا فتاتين فتحت الأسماك بطنهما، وأمام فيلتنا وجدوا عامل بناء صعيدي مدفونا في الرمال، وقد اخترقت الرصاصات جسده.

ثم أشار لعدة كراتين لمأكولات ومشروبات أرسلها أخي، ونادي على خادمتين كانتا تنتظران بالخارج، وأمرهما بتنظيف الشقة وغسل الستائر والبشاكير. ووضع المأكولات في الثلاجة والنواشف في المطبخ. وقبل أن يغادر سلمني "موبايل" جديد، وكتلة نقود في ظرف مغلق، فتحته ورفضته على الفور، لكن أخي اتصل على الخط الجديد ليطمئن على وصول "الأمانة"، وحين علم برفضي للنقود، غضب وطلب أن أساعده في حمل جزء من أفضال أبي، وتمني أن أكون سببا في تقرّبه إلى الله، وألاّ أحول بينه وبين الواجب!

وطوال الليل، لم أنم لحظة واحدة، ولم ينقطع وشيش البحر وتدافع الأمواج. فأضأت كل الأنوار، وتجولت في الشاليه كالنمر المحبوس.

كانت بصمات أبي واضحة في كل مكان.. وروائحه الذكية تفوح من كل صوب.. لكن بمرور الوقت شعرت بوحدة قاتلة.. وتحول العبق الذكي إلى روائح لا تحتمل، والشاليه الممتد إلى قبر مظلم، والبحر إلى نداهة تغوى وتنادي، تطلب وتصيح. وشيئا فشيئا، بدأ

الموت يخيم على كل شيء، ويدخل كل الشقوق والأركان، ورأيته حتى في مواسير المياه، ومصابيح الكهرباء.. فحزمت حقيبتي، وتركت "الموبايل" على الطاولة، والنقود تحت الوسادة والأكل في الثلاجة، وقررت الرحيل حالما يطلع النهار!!

الدرس السابع

رافقني الحزن والوجوم من الإسكندرية، إلى بلدة أمي بوسط الدلتا كنت أشعر بفراغ وانهيار داخلي.. ومن خلال نافذة القطار الذي كان يخوض المزارع، ويجوز النخيل، كنت أري الأشجار مائلة والطيور حيرى في سماء رمادية، امتلأت بغيوم سوداء، وافقٍ لا يريم .

لكم أكره ذلك الخريف بحياده المرض، وليله العسير!..

فعبر الطريق الواصل بين القطار وبيتنا البعيد، داهمتني الهواجس، وأثقلت خطوي الهموم، فلم ألق سلاما، ولم أرد سلاما، لكني أدركت أن عزلتنا ووضعنا الاجتماعي قد حرماني من صداقات كثيرة.

فلا أنا مدني ولا قروي، إذ كنت أعيش في القرية بعقل مدني، وفي المدينة بقلب قروي، لذا كنت الحظ نظرات أقراني - المختلطة - نحوي، وهم يفترشون المصاطب، أو الكباري، نظرات من يوشك أن يقول: أرنا ماذا ستفعل يا نسر.. بعد أن فقدت جناحيك، وهزمك الزمن!

ولابد أنهم - الآن - يلحظون تقدمي في العمر، وانهزام خطواتي، كما ألاحظ عليهم ذلك، ولربَّما ظن بعضهم أن "أولاد الذوات"

لا يشـيخون مثلـهم، لأنهـم لا يحفـرون الأرض،ولا ينزلـون الـترع والمصارف، ولا يتكومون كالبقر في عربات الترحيلة، أو يتقاطرون أمام الوحدة الصحية "ليغزهم" التومرجي بحقن البلهارسيا.ولا ينامون نصف جوعي، في بيوتٍ رطبة،واطئة أشبه بالزرائب، فكيف يشيخون مثلهم، ويموتون مثلما يموتون؟!

لم يكن أبونا يمنعنا من الاختلاط بأحد، لكن وضعنا الطبقي، وبعدنا عن العمران كانا يقصران صداقاتنا على أولاد المهندس، وناظر الوقف، وضابط النقطة، وطبيب الوحدة، ومدير البنك، وكلهم عرضة للنقل والرحيل في أي وقت!!

لذا لا أذكر أني- في مراهقتي- صادقت أحد أولادهم، أو أحببت إحدى بناتهم لأكثر من عام، بل إن أكثر من ارتبطت بقلبها، وكدت أجن حين رحلت ليلا كانت ابنة الضابط، الذي نقلوه بعد ستة أشهر لأسباب لا أدريها..

وكيفما يعودُ الطائرُ الغريبُ إلى عشهِ، وجدتني أعودُ مأخوذاً، لبيتنا القديم.فهل كنت أمشي ضد عقارب الساعة، أم نحو مفترقٍ جديد؟! كنت أسمع وقع خطواتي على الأرض المتربة، وأري الأشجار باهتة على الجانبين، وانتظر أن يقابلني أبي في أي مكان، فعلى هذا الطريق خاض وحل الشتاء، واحتمي بشجره من حرارة الصيف، وعلى هذا الطريق عاد بزوجته الجديدة، ومن هذا الطريق حملوه إلى مثواه الأخير!!

لذا وددت لو أصرخ في جبٍ عميق!!

وبقلبٍ فاترٍ حزين، كان عليَّ أن أواصل الحياةَ حتى تدركني الملالةُ. بعد أن تشابهت أيامي، ولم أستطع الخروج من عباءة أبي أو سطوة المدينة.

وهاأنذا لا أعرف ماذا أفعل بأيامي الآتية، بعد أن تعلمت من الحياة:حكمة الموت.

ومن السكون:حكمة الحركة..

ومن اللذة:حكمة الألم

ومن المخاطرة:حكمة الصبر

ومن الموت:حكمة الحياة !!

الهرم 2003

محروس الثامن عشر

الفتوحات - في الأرضِ - مكتوبةٌ بدماءِ الخيول

وحدود الممالك

رسمتها السنابك

والركابان:

ميزان عدلٍ يميلُ مع السيفِ .. حيث يميل

• أمل دنقل •

محروس الثامن عشر

حين عُيِّن محروس الفرماوي محافظا جديداً . خلفا للمحافظ المشبوه . بات عليه أن يلقي كلمته المقررة.. وبات على العارفين بالأمور أن يستقبلوها بالغمزات . واللمزات . المقررة!!

فهاهو المحافظ الثامن عشر، يلقي كلمته الثامنة عشرة، ليجلس على نفس المكتب الذي شغله السابع عشر، وسيشغله التاسع عشر لهذا بدا أن كل الأمور تمضي في مسارها المقرر..

غير أن الاختلاف الوحيد هو أن المحافظ الجديد ، رفض أن يرتدي الزى المقرر، وأصر على أن يلقي كلمته المقررة بطريقة غير مكررة! قالوا : لا بأس.. متعالي.. أسكرته الوظيفة ، وهذا يحدث في بعض البلدان أحيانا..

لكنهم حين راجعوا مضمون كلمته المرتجلة، تبادلوا النظرات المقررة، ثم الضحكات غير المقررة، ثم القهقهات المحظورة فهاهو

"الغربال الجديد" لم يخرج عن "النص المكرر"، ولم يشذ عن القاعدة المقررة.. كل ما هنالك أنه بدلا من أن يؤكد إنه:

ـ سيحرص على "نظافة اليد".. وهو تعبير غامض لمن يتأمله، قال إنه:

ـ سيحرص على مقاومة الفساد بكلتا يديه!!

وهذا أمر طبيعي لكل من خاصمته الفصاحة، وعاندته البلاغة، ومزلق لم ينج منه شيشرون ولا تشرشل، فما بالك بمحافظ إقليمي - تنفيذي - عسكري، في بلدٍ متاخم لأحراش أفريقيا.. وبحار الظلمات والرمال الساخنة!!

لكن ما أثلج صدورهم.. وأطفأ نيرانهم أنه استخدم - مثله مثل غيره - "سين التسويف" والمماطلة، وبعض أدوات "المشألة" و"المأذنة"!!

لذلك بدأت الفقرة الثانية، حين وقف رجل غليظ الكفين والشفتين، شارخا سكون القاعة بصوته الحاسم الجمهوري طالبا أن يصول ، ويقول: قالوا : دعه يقول !

فاستل من جيب معطفه، الذي فرده تحت مرتبة، ورقةً في حجم الجريدة، وألقى قصيدة تقريظٍ مقفاة - جاهلية الألفاظ والمعاني - قالها في ستة محافظين فأسقطهم.. وفي وزير شاب فلقي مصرعه.. وفي نائبة برلمانية فترملت على الفور.

كانوا يعرفون - بحكم خبرتهم الطويلة في كواليس السياسة وخنادق الحكم المحلي - أنه مجرد رقم في مسلسل.. يتغير كل عام.. ضيف يعبر قناة كما عبرها غيره!

أما هم: فهم القناة نفسها.. هم الأصل. هم النخل الراسخ، الذي لا يهزه قر.. ولا يهزمه حر!!

أحيانا كان يأتيهم - من الجيش أو الشرطة أو القضاء - رجل طيب، ميئوس منه لمجرد أن "يتوارى" عندهم، ويضمن راتبه لأطول فترة ممكنة، فيشفقون عليه، ويسمحون له بالجلوس إلى جوارهم.. وأحيانا على سيقانهم، وقد يتبرع أكثرهم فصاحة، فيدبِّج له ما يسمونه - غامزين لامزين - بخطبة العرش!

وهي "خطبة" بالفعل، يحرص مؤلفها على استخدام كل أدوات "التسويف" و"المأذنة"، و"المشألة"(*) فيراق على جوانبها دم النحو والبلاغة، والصرف واللكاعة، ويراها العارفون الواثقون فرصة للاستهلاك المحلي، وتفريغا لشحنةٍ تركها الأجدادُ مكبوتةً كالغازات - في أمعائنا.

فإن تمرد أحدهم، أو انتقل من "المتن إلى الهامش" أو من القضيب الأيمن إلى القضيب الأيسر، فسوف يصل إلى محطتهم في نهاية الأمر، فكل الطرق - بالفعل - تقود إليهم.. وتنتهي تحت أقدامهم، أو سيقانهم!! ثم.. من منا لا يقاوم الفساد؟! كلنا نقاومه، وكلنا في خدمة أبنائنا الطلبة، وإخواننا المواطنين، ورؤسائنا المخلصين، وأبناء هذا الوطن الهمام، الذين رفعونا بأصواتهم.. وخصّونا باختيارهم!

غير أن الأمر اختلف قليلا - وخرج عن القضيبين - حين أصر المحافظ الجديد على نقل كل من كان يعمل في مكتبه، إلى وظائف أخرى!

(*) سوف - بإذن الله - إن شاء الله.

قالوا : لا بأس.. ما دام الأمر لا يخصنا.. فهن - بالفعل - طغمة من البنات التافهات اللاتي يعطلن بعضهن البعض، ويهتممن بألوانهن وملابسهن أكثر من اهتمامهن بعملهن. وبعض الرجال الذين تأنثت مشاعرهم وطالت أظافرهم، بحكم مصاحبتهم للبنات لأكثر من أربعين يوما متصلة!

لكن الأمر اختلف كثيرا.. حين مُنع سكرتير المحافظة من الدخول بدون إذن، فكاد الرجل يضيع فيها.. لولا أن نقلوه للإنعاش!

ولم يمر أسبوع واحد، حتى حوله للنائب العام، ومن خلفه عدة ملفات تؤكد تورطه، وتثبت تخاذله وتكسبه!

قالوا : لا بأس.. غربال جديد.. يرتخي بعد حين!

لكن الأمر اختلف كثيراً كثيراً حين حول كل مديري المستشفيات وإدارات الإسكان، والتعليم، والصرف الصحي للتحقيق، بتهم مختلفة .

قالوا : لا بأس مادام بعيداً عن أنوفنا، لكن أحدهم تساءل عمن يحرس هذا المحروس؟ ومتي يرتخي غرباله؟!

ثم اختلف الأمر كثيرا جداً. حين اتصل بوزير الداخلية، ورجاه أن ينقل مدير الأمن لأي جهة يراها.

وحين طالبه الوزر بدليل واحد، قدم له من الأدلة ما جعله يخيِّر المدير بين النقل إلى الواحات البحرية، أو الحبس في القناطر الخيرية!!

وأخيرا، وأصبح الأمر لا يحتمل - ولا يطاق - حين ظهرت اشاعة مفادها أن المحافظ الذي أسكرته النجاحات، وخدمته الظروف والصدفة، قد خايلته شهوة السلطة، فراح يعس، ويدس بأنفه في كل شيء، وبات يتجسس على رجالات الدولة، متتبعا سهراتهم وحركة أموالهم!! بل وأشيع أنه تردد على محافظ البنك المركزي، وأثني على قهوته. قبل أن يطلب مصاهرته!

وهو ما نفاه محافظ البنك لمن بُعث إليه، مشيراً إلى أنها مجرد زيارة مجاملة صنعتها الصدفة!!

قالوا: "أصبر على جارك السُو".. كلها أشهر ويفقد صلاحيته ثم نكتب للتاسع عشر "خطبة العرش". لذلك جاءت الصدمة فادحة وحاسمة حين تغيرت الحكومة، وبقي هو!!

فلم يعد الأمر يحتاج لأدنى درجة من درجات الذكاء لتحليل ما يجري وتأويل ما يمكن أن تحمله الأيام!

وبما أن الحكومة لا تعين المحافظين طبقا لأقدميتهم، أو انتظامهم في طوابير القوى العاملة، فقد توجب على كل المناوئين أن يعيدوا النظر في أولوياتهم، ويغيروا من خنادقهم وآلياتهم، بعد أن فشلت كل الحيل، وارتدت كل المؤامرات!!

وبعد أن بدأت بعض الصحف المناوئة - بسبب حظره لإعلانات النفاق - تكتب عن إنجازاته، وتنشر طموحاته وفتوحاته، وشعر رجل الشارع بأن التطوير والتجميل والإحلال قد طال كل ما حوله، بل قيل إن المحافظ أعاد لخزينة الدولة ملايين الجنيهات كانت تدخل جيوب السماسرة والمرتشين والمتاجرين، دون أن يبتز رجال الأعمال،

أو يحرم موظفا بسيطا من عدة جنيهات يمكن أن تستره، وتوسع على أولاده!!

وهو ما أيقظ نوازع الخير والأمان في ضمير من لم يغرق بعد في مستنقع الأنانية، ومن لم يصل الشر - بعد - حتى أرنبة أنفه!!

لذلك راجعوا كل قراراته، وعكفوا على ذمته المالية، وعلاقاته النسوية، فلم يخرج في شباكهم ما يمكن وضعه بين إصبعين!

وحتى لا يتكرس إحساسهم بالهزيمة، وشعورهم بالتفاهة، تابعوه في جولة ليلية، فوجدوه يركب سيارة قديمة مخصصة لعمال القمامة ويعس في المدينة، "فيطب" على خفير شونة، أو عسكري درك، أو عامل في سنترال، أو طبيب في مستشفي، أو نوباتجي في قسم شرطة ويحول كل من يجده نائما - أو غافلا - للتحقيق!

ثم وجدوه يتنكر في زى صعيدي ويتمارض في قسم الطوارئ.. أو يزور مشروعا افتتحه بالأمس ليري إن كان ما رآه بالأمس مازال على حاله أم لا ؟!

وبعد الفجر رأوه يطارد لصاً مسلحاً، وينقض على عنقه كما ينقض نمر جائع على غزالة في عمر ابنته!!

قالوا: ربّما كان غنيا، أو وارثا لأطيان، فهذا هو حال الأغنياء في كل مكان.. إذ كثيراً ما تغير الثروة من سلوكهم، وتجعلهم أكثر ثقة بأنفسهم، وأقل تعلقا بالراتب الشهري، أو المنصب الحكومي!! لكنهم وقفوا على أصوله الرقيقة، وعرفوا أن أباه مجرد فلاح بسيط، باع عنزته لينتهي ابنه الثامن من دراسته!

وقبل أن يصيبهم اليأس.. دسوا له غانية في ثوب خادمة، لكنه طردها بعد يومين!!

إذن، كيف أنجب ولديه؟! وهل أثرت الحرب الأخيرة على رجولته؟.. أم أن الفتور يعود لأسباب وراثية أو طفولية لا تهمنا؟! لم يستطع أحد أن يجيب أو يبرر.. لكنهم عرفوا من "الخادمة" أنه نباتي ولا يأكل سوى وجبتين.

ولا يطيق رائحة السجائر.. أو الخمور!!

- هل يحب التحف الثمينة.. الملابس المستوردة.. الـ ...؟!

- لا ..

- العطور الفاخرة.. الثريا المذهبة؟

- لا ..

- هل يزوره أحد، أو يزور أحدا؟

- لا ..

- هل يسيطر على زوجته .. أولاده؟

- .... !

- هل ينام مع .. زوجته؟!

ضحكت الخادمة فطردوها، ولاحقوها باللعنات.

إذن فهو لا يسعى للمال، ولا يحب النساء، ولا الخمور، وليست لديه أكلة مفضلة، أو بضاعة يمكن أن تشتري أو ولد يمكن أن ينتقل من حضنه إلى حضننا، أو زوجة يمكن أن تشتهي غيره!! فهل له في الغلمان؟ في الخصيان؟!

ماذا يحب إذن؟

اعترف أحدهم بأنهم لم يصوبوا قذائفهم كما ينبغي، ولم يستخدموا مدافعهم الثقيلة بعد.. والحل:

- أن يستعينوا بمن تملك عظاما أرق، وأنفاً أدق، وعيونا متسعة ، وقواما متسقا.

والمثل يقول: من يرفض الشعير قد يقبل الفطير، ومن يتاجر في الملاليم لا يكسب سوى الملاليم!

وحين باءت كل المحاولات بالفشل، بدأت المهاترة:

اقترح أحدهم - وهو من غلاة المجلس القديم - أن يتنكر أحدهم ويضربه بأي شيء، أو يدس له أي شيء في أي مشروب. غير أن العضلات المفتولة للسيد المحافظ وبنيته العسكرية التي تظهره وكأنه يرتدي عدة قمصان مضادة للرصاص، وما قيل عن حمله لسلاح - ليزري - من ذلك النوع الذي تستخدمه رامبو في الأفلام الأمريكية، أجل البت في هذا الموضوع.

- إذن نكرى من يضربه لنا.

- أو نأكل الموز.. ونلقي بالقشور على السلم الرخامي!

- أو نغوط له في الظلام.

- أو نكنس عليه ضرائح الأولياء.

أخيراً اقترح أكبرهم سنا وأكثرهم خبرة ومرضا - أن يعودوا للعقل، فليس من المنطق أن يتخلى مسئول كبير مستهدف - بحكم منصبه - عن تأمين نفسه! فرفضه لكل حراسه يعني - ضمن ما يعني - أنه لا يخاف أحدا، ولايشعر أنه يقترف ما يخاف عاقبته وهذا جديد

علينـا كـل الجـدة، ولا يجـب أن نواجهـه بأسـلحة تقليديـة.. وإلاّ كنـا كمن ذهب لأسد جائع ليبيعه خنفسه!

وتذكروا ما فعله بالتاجر البدين، حين حاول أن يهرب بسيارته!

ـ أو باللص المسلح !

ـ لا أنكر أنني بُلت على نفسي.. و..

ـ وأنا أيضا.. فهذه أول مرة نرى فيها محافظا من شيكاغو!!

ـ لابد أنه يتصور نفسه عمر بن الخطاب.. أو دون كيشوت!!

ـ لذلك أري أن نجعله هدفا للمتطرفين!!

ـ كيف ؟!

ـ ندّعي أنه يعتزم هدم المساجد، وتحويلها لكباريهات، أو أندية قمار!!

ـ والكنائس أيضا. لا تنس ذلك.

وقبل أن يمعنوا في الخطط والتدابير، خدمتهم الصدفة حين زار المحافظة وزير التعليم، وهو في طريقه لمحافظة أخرى، فلقاه المعلمون وأخطروه أن المحافظ يقطع أرزاقهم، ويخرب بيوتهم!! وما يحز في نفوسهم أكثر وأكثر.. أنه يسفّه وزيرهم، ووزارتهم، فأراد الوزير ـ مجاملة لرجاله ـ أن يلتقي بالمحافظ، ويوبخه إن لزم الأمر، لكن المحافظ رفض مقابلته، وتعلل بافتتاح ترعة أو ما شابه!!

ثم كانت الخدمة الكبرى، حين استدعاه رئيس الحكومة، فقالوا: الحمد لله.. لا يفل الحديد إلا الحديد.. هانحن قد تخلصنا من الثامن عشر، وعلينا أن نكتب للتاسع عشر .

غير أن صدمتهم كانت مدوية ـ رفعت الضغط والسكر معا ـ حين عاد الرجل متورد الخدين، تشع الثقة والانتصار من عينيه!!

وعرفوا أنه قوبل بترحاب كبير، ومُنح صلاحيات جديدة لم يُمنحها حتى نابليون لنفسه!

وأكد شهود عيان أن رئيس الوزراء استقبله بترحاب لم يتوقعه المحافظ نفسه، إذ قام من مكتبه وكاد يستقبله على الباب، ثم صحبه إلى المكتب. فظل المحافظ جامداً في مكانه ـ وكأنه أصيب بإغماءة قصيرة ـ حتى دعاه الصوت الرخيم للجلوس، وأشار إلى مقعدٍ وثير لا يجلس عليه إلا أقرب الأقربين. غير أن الرئيس فتح عدة ملفات على مكتبه، وراح يتأملها باسماً مرة ومراجعا مرات، وما كاد ينتهي منها حتى داهمه ضحك متواصل، أثار دهشة محروس في البداية، ثم ما لبث أن شاركه الضحك، وهو يتمنى أن يسأل الرئيس عما يضحكه بالضبط. لكنه تساءل عما يمكن أن يكون في هذا الورق المضحك.. ورجّح أن تكون شكاوى كيدية لها طابع النكتة، أو افتراءات لا يعرف الرئيس كيف يصدقها.

ولما كان محروس يدرك أنه لم يسع لهذه الوظيفة، ولم يتكسّب منها، أو يفعل ما يخالف قناعاته، فقد فكر أن يسحب ورقة، ويكتب استقالته فوراً.. غير أن الرئيس توقف عن الضحك بصعوبة، وهو يقول:

ـ اسمع يا سيادة المحافظ !

وقبل أن ينطق الجملة المفيدة، دخل الساعي بقهوة الرئيس "ويانسون" المحافظ! وهو ما أثار تعجبه واندهاشه.

إذن فـالرئيس يعـرف كـل شـيء عنـه، ويعـرف حتـى مشـروبه المفضل!.. فهل وصلت الأمور إلى هذه الدرجة؟!

وعندئـذ توقـع محـروس عـدة سيناريوهـات لطـرده؛ لعـل أهونهـا أن يقدم استقالته، أو يحول - بأي تهمةٍ من التهم - للمدعي الاشتراكي!!

وقبل أن يمعن في التفاصيل، أمره الرئيس بشرب يانسونه فشربه على عجل، دون أن يعرف إن كان بارداً أم حاراً.. وحين سقطت قطرتان على ثيابه، وجد الرئيس يناوله منديلا ورقيا فذكره ذلك بعشماوى حين يطلب من "ضيفه" أن يطلب ما يريد قبل أن ...

- اسمع يا سيدي.. أمامي شكاوى ضدك.. لكنني أعتقد أنها تدين مرسليها وتُبرئ ساحتك من أول جلسة!

وقبل أن يتحرك المحافظ ليتكلم أو يتعلل، أشار الرئيس إلى أنه يعرف كل شيء ويعرف أن أعداء النجاح في كل مكان.. ولا يجب أن يمنعنا الخوف.. من المغامرة!!

ثم رشف رشفةً من قهوته، وأضاف:

ـ واضـح أن الكـثيرين لم يسـتوعبوا بعـد أن المحـافظ يمتلـك صلاحيات رئيس جمهورية.. لذلك سأعطيك صلاحيات جديدة..

تستطيع بها أن تحاسب السابقين واللاحقين معا، فلا يعقل أن نطالب بسيادة القانون ثم نخرقه، أو نحب غيرنا ونحن نكره أنفسنا، فلا تأخذنك في الحق لومة لائم.. وابدأ بي إن أردت!!

كان المحافظ من المؤمنين بأن الحلول التقليدية لم تعد تحل المشاكل التقليدية، وأن مشكلة البشر المحورية أنهم لا يفكرون إلاّ بثلاثة طرق: اليمين والوسط واليسار، وما على الضحية إلاّ أن تختار

أحد الطريقين أو ما بينهما، لذلك ما كاد المحافظ يغادر المكتب حتى عاد وانتحى برئيس الحكومة وطالبه بصلاحيات أخرى، قد يتجاوز بعضها نطاق محافظته، وربّما دولته إن لزم الأمر؛ فوافق الرئيس على ذلك ما دامت هذه الصلاحيات لا تتعارض مع القانون، ثم استدرك مداعبا وهو يودعه ويضغط على يده باسمًا:

- المهم ألا تنشئ سفارة مستقلة لدي العدو!!

- بل أريد أن أفعل ما لم يفعله غيري !!

ضحك الرئيس وهو يصافحه لآخر مرة، دون أن يعير كلامه اهتماما واجبا فقد سمع - ومازال يسمع - عشرات المجاملات والوعود الغامضة، التي تصب في أذنه كل يوم، لذلك فهو يعرف الإمكانيات ويعرف أن المرء عبد ما يملك، وسيد ما يستطيع!!

أما محروس الفرماوى فقد فهم أن ضحك الرئيس، موافقة ضمنية على ما ينتويه.. وضوء أخضر لا يجب إطفاؤه!!

وكان أول ما فعله هو تعطيل السنترالات الدولية، وانتهاز فرصة غياب مدير الأمن فتولي صلاحياته، ومنح أجازات مفتوحة لمندوبي الوزارات والصحف والوكالات، ووضع رقابة مشددة على مداخل ومخارج المحافظة.. قبل أن يستدعي جنود الاحتياط من كل المراكز والكفور، وجمع كل السعاة، وعمال القمامة والرش وغيرهم، وسلم الخفر أسلحة زائدة عن حاجة الشرطة، وصادر كل السيارات التي يمكن أن تنقل الجميع إلى هناك.. وسخر كل ورش الحدادة وغيرها لعمل دروع لسيارات "اللندروفر" بعد أن أحسن تسليحها بمدافع ثقيلة يعود بعضها لعصر طومان باي.. ووجد أن مدافع الهاون عبارة عن

أنبوب حديدي يستطيع أي حداد غشيم صنعه، وداهم - بنفسه - عصابات المخدرات والعملة وتجار السلاح والعريان وصادر ما لديهم من أسلحة وذخائر، وطالب كل من يحمل طبنجة شخصية بضرورة التواجد بمبني المحافظة.. وأمر كل المستشفيات بإعلان حالة الطوارئ وترحيل كل من يثبت تمارضه، أو يمكن علاجه في بيته، أو يعاني من مرض لا براء منه!!

وجمد كل الأجازات والمأموريات، واطمأن - بنفسه - على مخازن الزيوت والوقود، وصوامع الغلال والبقول والسكر.. وشدد على ضرورة التبرع بالدم، وتسليم كل ما يمكن الاستغناء عنه لمبني المحافظة حتى ولو كان مجرد سروال ريفي ممزق!!

وقبل منتصف الليل، طلب أن يقف على مرتبات كل الموظفين.. وكل فواتير الصادر والوارد، فارتبك الجميع، وراحوا يترددون على المراحيض، ويؤولون كل ما يجرى بارتياب، وترقب:

فرأوه وهو يدقق "ويمقق" ويحقق، فيصحح أخطاء اللغة، ويثبت كل خطأ في الإجراءات، ويُفَقِّطُ كل الأرقام والبيانات، وكأنه يقول لهم: هكذا يجب أن يكون العمل!

وحين عادوا في الصباح، وجدوه ما يزال في مكتبه، وقد تراكمت حوله التقارير والملفات، حتى كادت تخفيه عن الأنظار، ووجدوا الاحمرار باديًا في عينيه، فضربوا "أخماساً في أسداس" وقيل إن بعضهم نقل إلى مستشفي، فيما حاول آخر أن ينتحر فألقي بنفسه في حمام سباحة، وحين غادر مكتبه وأغلق الباب، تناثرت أقاويل، وتضاربت نتائج، وبات على كل من تحايل، أو غش في سلعة، أو

تجاوز في إجراءات أو انصرف قبل مواعيد العمل الرسمية، أو حتى شرب شايا دون أن يدفع ثمنه: أن ينتظر كارثة!!

كان الضباب يغلف كل شيء، والغموض يحيط بكل ما يجرى حتى ساعي المحافظ لم يكن يعرف شيئاً، أما السائق فكان أكثر منه جهلا، والسبب: أن المحافظ لم يكن من هواة القهوة، وكان يفضل أن يقود سيارته الخاصة بنفسه!! وهو ما دعا بعضهم للاستعانة بضاربة ودع، بعد أن تخثرت كل التوقعات والتأويلات، وتضببت كل الأماني فبدأت المهاترات:

- ربما كان ينوى القضاء على المخدرات!
- أو التخلص من الموظفين!
- أو القضاء على دودة القطن!
- أو معاداة السامية!
- أو يسعي لتحديد النسل!
- أو زراعة الصحراء.
- أو القضاء على الفئران!
- أو ذبابة الفاكهة!

وغير ذلك من سيناريوهات واستنتاجات تعكس هاجس صاحبها.. لكنها لا تعبر - في واقع الأمر - عن الحقيقة!!

أما الحكومة فهي عادة لا تولي مثل هذه المحافظات النائية اهتماما لافتا.. ما دام الأمن مستتبا، والأسعار في متناول الجميع.. "والروائح" لم تزكم الأنوف بعد، ومادام البترول لم يتفجر من أرضها، أو توضع على خرائط السياحة، أو الحدود الساخنة، أو

الجريمة المنظمة. ولأن الأسئلة القديمة لا تأتي إلاّ بأجوبة قديمة، فقد استخدم المحافظ كل سلطاته "الفيدرالية" فسمعناه يأمر ويُنهي، وسمعناه يهدد كل من يتكاسل أو يتوانى بالاعتقال والنفي. ورأينا سيارات وكاسحات ثقيلة لمحافظات صديقة تدخل حدودنا ليلا بضجيجها الفادح، ودخانها الثقيل، وهي تحمل أمتعة غامضة، مغطاة بمشمعات سميكة مموهة.. وتختفي بين الأشجار البعيدة ورأينا دوابا لا حصر لها تحمل أمتعة وتنتظر في الظلام!! وأكد شهود عيان عادوا لأسباب غير معلومة من الصحراء القريبة أنه يدرب الناس بكل جدية.. ويقسمهم إلى جماعات متعارضة بحيث لا يعرف كل فريق ما يفعله الآخر، وهذا - لعمري - خطأ تكتيكي بليغ، لا يقع فيه جندي مستجد يعد لأي حرب!

ولكن من يجزم بأن محروس يعد للحرب .. وأي حرب ؟ ولماذا؟ وكيف؟ أسئلة كثيرة لا يستطيع أن يجيب عليها إلاّ محروس نفسه!!

ومحروس مغلق.. كامن، ومن يستطيع أن يفك لسانه لم تلده أمه بعد!

وما زاد الطين بلة - كما يقول الأوغاد - أنه صادر كل طائرات الرش والتدريب، وأعاد صيانتها، وشد إلى بطنها أنابيب غامضة بحبال جديدة. وجعل كل من يعتد بالعقل والتنظيم والحكمة يسأل نفسه:

- ماذا فعلت لنا الجيوش المنظمة، والأسلحة الحديثة؟!!

ثم أعاد للأذهان ما قاله لرئيس الحكومة: "أريد أن أفعل ما لم يفعله غيري!!" وفي الصباح، كانت الملصقات تغطي شوارع المدينة: تحذر من الغارات والشراك الخداعية، وتدعو لتكوين لجنتين: الأولى لشئون المرأة، بحيث تتولى الحراسة والنظافة ومداواة الجرحى وتوزيع الغنائم، والثانية: لشئون الطفل ودوره في المعركة!!

ـ المعركة؟.. أي معركة؟ وأي غنائم؟

ـ ....

ـ لابد أنه يريد أن يستقل بالمحافظة كما حدث في زفتي!!

ـ وجزر القمر!!

ـ أهو طولوني.. أم يتأسي بقطز ودون كيشوت؟

لم يكن هنالك من يدلي بأي تصريح، أو يملك أي إجابة !!..

ففي كل ساعة تتغير قرارات وتتبدل خرائط، فتتغير مواقف، وتتبدل معاني.. وهو ما أثار القلق بين صفوف المجلس المحلي وضاعف من استهلاكهم للقهوة والكركدية البارد .

ولكي يبددوا القلق الذي يساورهم، ويقض مضاجعهم ليل نهار، قرروا أن يوفدوا لجنة - انتحارية - لمقابلة السيد المحافظ شخصيا وتقصي ما يجرى إن لزم الأمر!!

وبعد تدقيق، وتمحيص، و"تفعيص".. عرفوا أن ما يخفيه المحافظ الهمام من تجييش "وتحبيش"، إن هو إلاَّ مظاهرة نفاق سنوية، هدفها تجميل النكسة، وتبرير الوكسة، وأن تمنُّعه وتبتله كانا مجرد تمويه وتقية كرنفالية، لا تستحق الاهتمام... ثم ذكرهم أحدهم

بشهر الهزيمة والتراب، فضربوا رؤسهم بأكفهم، ولعنوا الغباء والتبطل، وشرب المغات!

ـ إذن فنحن في يونيو .. حزيران؟..

ـ الرابع من شهر التراب.

ـ صحيح.. إذا عُرف السبب بطل العجب!

غير أن "العجب" وصل إلى حد التعجب، حين تم بالفعل تجميع الاحتياط وكل من يستطيع أن يحمل منجلا، أو شومة، أو حتى نبلة!!

بل وكل امرأة تستطيع أن تصوت ـ بإخلاص ـ أو كلب عقور، لذلك جاء الجمع خليطا من الرجال والأطفال والنساء والشيوخ والحيوانات منهم من يلبس الميرى، ومنهم من يلبس الجلباب، ومنهم من يلبس الزى المدرسي، ومنهم ما يُجَر من عنقه أو فمه!!

لم يرفض ـ أو يعترض ـ أحد، حتى من لم يصبه الدور في التجنيد الحكومي لأي سبب سابق: سقوط في خصية، أو تفلطح في القدم أو حول معيب، أو هروب من الأسر أو السجن!

لم يكن هنالك أي مخرج للهروب هذه المرة، فالحكومة تعرف كل شيء.. وهو يعرف ما حدث لجده الكبير، حين ربطوا في عنقه حجراً وقالوا: جر يا فرعون.. فجر.. وانجر!!

وما حدث لجده الأصفر حين رفض السُّخرة فجرُّوه كالبهائم، وجزّوا شاربيه الأشيبين، لذلك كله تسللت الجينات إلى الأحفاد وترسخت بسهولة!

غير أن مشكلة بسيطة كادت تطيح بكل ما فعله الثامن عشر وهي : أنه لابد لهذا الجيش الجرار ، لكي يأخذ طريقه إلى مبتغاه، أن يمر - ليلا - بالعاصمة! نعم، العاصمة ولا يوجد أي حل آخر!!

لذا، رآه رئيس الوزراء من مكتبه الوثير، وهو يخترق شوارع المحروسة التي نكّست أعلامها بهذه المناسبة الحزينة، فسأل وزير دفاعه تليفونيا عما يجرى هناك، فطمأنه الوزير بأن كل شيء مستتب والحمد لله.. لكنه لم يسترح لإجابته تلك، فقد كان الأمر مستتبا ومستبداً، حين غزانا الغزاة، وخاننا الخونة!!

وظل القلق يراود رئيس الحكومة - وهو يرى الغبار في الشوارع - والعتمة تجللها، حتى شاهد الثامن عشر وهو "يلبس الميرى"، ويقف في عربة جيب مكشوفة كان الجيش قد باع مثلها للأهالي فجددوها.. وخنفسوها.. ورسموا عليها رسومات شبابية ماجنة: قلوب مخترقة بسهام الحب، وعيون دامعة وعبارات بالإنجليزية والفرنسية تحذر من الحسد، وكيد النساء.

نعم رآه الرئيس يعظّم بيمناه شامتاً، وهو يولي وجهه شطر مكتبه، أما يسراه فكان يشير بها إشارات غامضة لم يستطع

الرئيس تحليلها بسرعة، ليعرف إن كانت للحضور، أم الوداع، للنصر أم الشهادة!!

كان لديه من الهموم والمشاغل ما يكفي، فرد على إشاراته بإشارة مجاملة عابرة، قد تعفيه شر الصداع، وتوفر له الوقت والجهد!!

ولمّا كان الطريق الذي يسلكه ذلك المعتوه لا يقود إلاّ إلى الصحراء والمقابر، فقد ظل الرئيس يراقبه من خلف الزجاج المحصن، وقد بدا على وجهه الإرهاق والضجر.. ومع ذلك لم يطمئن حتى اختفي الثامن عشر في الظلام البعيد، وسقطت على الأرض آخر ذرة من غبار تابعيه!!

أما مجلس المحافظة فقد اجتمع على وجه السرعة ليقرر حال البلاد.. بعد أن تركها حاميها دون أن يقول، أو يعرف أحد وجهته، أو نواياه، وما كاد أحدهم يفكر في "حكومة ظل"، حتى عنّفه الجميع باستياء، ونعتوه بالجهل والحماقة.. ليس لأنه لا يفهم في السياسة فقط، وإنما لأنه "لا يعرف عدوه".. وصلاحياته الاستثنائية!.. فقد تكون هذه مجرد لعبة من ألاعيبه، أو طعم في سنارته!!

ولم تدم المداولات طويلا، حتى دخل أحد مصادرهم السرية بتقرير سلّمه "للكبير"، الذي ما إن قرأه، حتى امتقع وجهه وغامت الدنيا في عينيه، فتحلقوا حوله.. وأسعفوه بالماء والنوشادر وظلوا بجانبه.. حتى سمعوه يصارحهم وهو يودع الدنيا متهدجا وذاهلاً:

- اكتبوا للتاسع عشر...

وقبل أن ينزعوا التقرير من يده ليعرفوا ما جرى..

كانت جيوش الثامن عشر قد تجاوزت الصحاري الواسعة، واستطاعت بفضل حنكة قائدها الداهية ومعرفته بكل الدروب والمسارب، أن تتفادي كل الممرات والمضايق، وتتجنب كل الردارات والمعسكرات، حتى بدت لهم أضواء العدو وزيناته تتواتر في غبشة الصباح..

وحينئذ، وقف الثامن فوق إحدى عربات "الداتسون" المصفحة مزهوًا وكأنه عريس يزف إلى عروسه، ومن خلال ميكروفون نقالي وصلوه لاسلكيا بعشرات الميكروفونات والدوائر المعقدة، راح يكشف سره الكامن لآلاف المهاجمين الذين موهوا وجوههم بالسواد، وعلاهم الغبار والتعب:

- يا أبناء المحافظة - محافظتي - لن أقول لكم ما قاله طارق بن زياد في جنده.. فها انتم ترون بأعينكم: العدو من أمامكم، والصحراء من خلفكم، فلندع التاريخ يقول ما يقول.. ولنلعب لعبة جديدة.. نلعبها في بيوتنا كل يوم.. ألا وهي: لعبة الموت والحياة.. ولتعلموا أن ما لم يحققه النظام، قد تحققه الفوضى.. وما لا يحققه الجد.. قد يحققه الهزل و.. و..

ومع أول ضوء لليوم الخامس.

وفيما كان العدو يحتفل بانتصاره السنوي المقرر، كانت طائرات الـرش قـد زمجـرت، والبنـادق القديمـة قـد ملئـت، والمـدافع عُبئـت وتقـدمت، والمناجـل شُـرعت، والنسـاء صـوتت، والكـلاب نبحـت، والدواب لغمت، والأوامر صدرت...

فكان البيان الأول!!..

الجيزة 2002

الكائن .. والمكنون

* ويل لمن سبق عقله زمانه.. واختلف واقعه عن مثاله *

الكائن .. والمكنون

معراج أول

حينما اختارني الضرير لأدله على الطريق، لم تسعفني الحيل، أو تواتني الوسيلة.

لكنه اختارني - أنا العازف العزوف - من بين ملايين البشر لأدله إلى مبتغاه!

ولما كان عنوانه - كما أخطرني - في طريقه، فقد استسلمت لكفه اللزج المشعر، وفي نيتي أن أفر هارباً، حالماً تتأتى الوسيلة، أو يخايلني الأمل!

ويبدو أنه شعر بذلك، لأنه قبض على معصمي وكأنني هارب من الإعدام، وما كدت أقول ما كنت أنوى قوله، حتى ضغط على كفي دون أن ينطق بكلمة يمكن تأويلها.. أو الاختباء تحت ظلها.. كان أمراً باتراً.. حادا كسيف، لكنه ناعم... وحويط!!

وقبل أن تغرب الشمس، سألني ـ فجأة ـ عن اسمي وعنواني وقال إن غرائب الدنيا كثيرة.. أغربها الإنسان.. وحين عرف أنني قطعت كل هذه المسافات لأزور صديقي الضرير، تعجب من أمري، وتساءل عن الضرورة التي تدعو مبصراً لزيارة ضرير؟

وقبل أن أبدي أي ملاحظة أو اعتراض، سحبني إلى محل لبيع المشروبات وأمرني بالانتظار، حالما يأتي بكوبين.

وما كدت التفت حولي، وأفكر في الفرار إلى أي ناحية، حتى رأيته يرفع في وجهي كوبا من العصير، تتواتر على حافته الفقاقيع.

ـ اشرب !!

وما كدت أفعل ذلك حتى شعرت برغبةٍ في التقيؤ.. وتحجر في الحلق، وقبل أن أفكر في سكب ما تبقي، سمعته يصيح وهو يوليني ظهره: ـ أكمل كوبك.

فشككت في أمر عماه.. لكن الجرأة لم تواتني كي أنظر في عينيه اللتين ربَّما كانتا مبقورتين، أو تشبهان "أم الخلول" في لزوجتهما واختلاطهما، لكني استطعت ـ في غفلةٍ منه ـ أن أسكب ما تبقي. فكانت دهشتي لا تحتمل حين خاطبني ونحن نواصل الطريق محذرا: ـ لا تفعل ذلك مع غيري!

إذ لم تواتني الجرأة لأسأله عما يعنيه، لكني فهمت أنه فهم، وأن مأزقي قد بات وبيلا.. وأنني لا أملك ما يدير به دفتي، فأردت أن اتجه صوب اليمين لكنه وجهني صوب اليسار!

وقبل أن اعترض أو أقول، ضغط على كفي بيده التي تشبه كف الدب وقال: "لا تخف.. فكل الطرق تقود إلى ما تبغي"!!

ثم سألني هامساً: إن كنت أهتم بالتاريخ، أو العلوم، أو السياسة، أو الخمور، أو النساء، فأشرت إلى أنني لا أهتم إلاّ بجلدي.. فاستحسن صمتي، واشتكي من الحر والرطوبة، فشكوت من البرد. والرماد.

كان عنوان صديقي قد غرق في لزوجة كفي، فشعرت بأنني ضللت الطريق وبات معراجي بلا نهاية!

وما كدت أشكو حيرتي، حتى طمأنني على الفور وقال: "لا تخف.. أنت معي"!!

ولما أشرت إلى حلول الظلام، وخوفي من أن نصبح ضريرين، صاح منتصرا: "لك النهار ولي الليل كله". ثم طلب أن أقرأ العنوان فقلت : "ما أنا بقارئ" .

فتدبر أمره، وقال: "خسارة" ولم أعرف على من انصبت الخسارة بالضبط:!

كان قد طلب الورقة، فقدمتها معجونة بلزوجة كفي، وأسرعت بوضع يدي في جيب سروالي المثقوب.

تحسسها بيده الأخطبوطية، وأعادها قائلاً:

- نعم .. نفس العنوان.. ألم أقل لك؟.

ثم قال كلاما كثيرا فهمت منه أن الحبر قد ساح، وأن عليّ أن اعتمد على ذاكرتي مثلما يعتمد الصقر على بصره:

كانت الشوارع خالية، حينما وصلنا إلى ميدان كبير.. تهز الريح أشجاره وتتجمد الناس في سياراتها، والطيور في أوكارها..

أشار صاحبي نحو لافتة وسألني أين نكون؟ فلم أفده بشيء..

نصحني أن أسأل من يفيدنا فلم أجد أحداً..

صعدت إلى كشك للكهرباء ونزعت لافتة الشارع، وعدت إليه متأبطا إياها. قال: أحسنت يا فتي.. فالمرء قرين نفسه!

وأعادني لقيده من جديد.. كدت أقول شيئا.. لكنني تذكرت أنني تكلمت كثيراً - منذ ولادتي - دون أن أقول الكثير!!

أوقفني قبل أن نترك الميدان، وأشار على جندي ينظم المرور، فأسرعت إليه فوجدته متخشباً.. لكني حين تأملت إصبعه المفرود، وجدته يشير إلى ضابط بعيد، ما كدت أسأله عن الطريق حتى أشار إلى امرأة عجوز تفترش الطريق، وتقدم الشاي الحارق لرجال من خشب. رشوتها بما في جيبي فلم ترد.. فعدت إلى رفيقي وبكيت.. وقبل أن أخبره بأننا فقدنا الطريق.. سحب اللافتة من تحت إبطي ورماها على الأرض فتحرك الشارع، وتدفقت المياه في النوافير وحين سألته إن كان جائعا أم لا؟ دفعني بغضب مضمر وعتب خفيف، قال:

- أسأل سؤال الحياة.. فلا ضل من سأل!!

جريت خلف امرأة فجرت أمامي.. سألت أخرى فاستنجدت بالبوليس.. رشوت شخصا يبدو متعلما فأخذني على جانب ونصحني أن اهتم بنفسي، رجوته أن يدلني على الطريق.. فبكي وأخطرني أنه

يبحث مثلي، لعنت ضابط المرور فسامحني.. مزقت بذلته وسألته عمن أتي إلى هنا مادام لا يعلم ما تعلمه الدواب؟.

وقفت في نهر الشارع وخلعت سروالي.. فتجاوزتني المركبات وتجاهلني البشر، صرخت في وجه الجميع.. يا كلاب.. يا جهله.. فلم يردني أحد، سعيت إلى صاحبي، وبكيت في حضنه.. فربت على ظهري وقال: لا تكن عبد ما تجهل.. كن سيد ما تستطيع!

وسحبني فسعيت في ركابه، وارتميت في معيته!! كانت شوارع الميدان تتعامد تحت شمس حارقة، وما تكاد تبلغ نهاية حتى يبدأ مفترق جديد!!

- 2 -

- أنت آخر من بقي لي.. أنت دليلي!!

هكذا قلت لصاحبي الضرير فلم يبد ردا، رفعت بنطالي الواسع سألته عن النهاية رشوته بما معي فرماه على الأرض.. وقال: تحرر من نذالتك.. وتعلم كيف تتسامي، وتبلغ المقام!

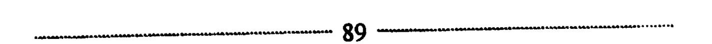
همست برجاء الغريق، ولوعة المبتلي:

- أرجوك دلني على الطريق.. أو ارجعني إلى حيث أتيت.. خذ كل ما معي!!

قال : ما معك لا يهمني، وما معي لا يهمك!!

وقبل أن تغرب الشمس، كنا قد تجاوزنا أسوار المدينة، وهو يسبقني غاضبا ويمد عصاه في الفضاء فتهرب الحشرات، وتخجل العناكب.

وحين حل الظلام.. أصبحنا ضريرين!!



- 3 -

بات عليَّ - إذن - أن أشم رائحة إبطه وحدي، وأن اتبعه في الظلام كما يتبع الكلب صاحبه، فرشوته بمودتي، وقبل أن يبوح الفجر بأسراره، كنا قد تجاوزنا الوهاد إلى الجبال، وتركنا الجبال إلى الصحارى.. وعلى جانبي الطريق كنا نسمع أصوات ذئاب وأفاع. ونحس بما ينشطر تحت أحذيتنا ويتمزق.. فواصلنا الطريق، وعند المنحني صاح صديقي الضرير على صاحبه في الجبال البعيدة فلم يأته سوى الصدى:

- يا برزجان

- جان .. جان.. جان!

- يا برزجان

- جان .. جان.. جان

سألته عمن يكون برزجان هذا ومتي نصل إلى مبتغانا فلم يرد!! أبديت رغبتي في التقيؤ، فنصحني بالاحتفاظ بكل ما لدي.. قبل أن يأتي اليوم الذي لا يجد فيه المرء ما يقدمه لنملة!

ولما هدنا التعب، سألني متوددًا عن رأيي في الأهلي أو الزمالك، فقلت إنني أشجع جزر القمر، قال: ولكنها لا تعرف الكرة، فقلت: ولهذا أشجعها.

ضحك فلم أجد ما يضحكني.. لكني وجدتها فرصة لأحسم امري ومصيري فسألته بحسم قاطع: متي يفك قيدي؟ وحينئذ تغير صوته وقال متعجبا:

ـ أنا لا أقيدك!

وقبل أن أدلل على ذلك، سحب يده من يدي وقال: تفضل.. أنت حر!! فشكرته، وعدت راجعا .. مستبشراً..

كانت أضواء المدينة قد اختفت خلف الجبال والوهاد البعيدة.. لكني ـ بدافع التحرر ـ تقدمت نحوها كفراشة حمقاء وما كدت أخطو عدة خطوات، حتى خانتني الشجاعة.. وتراث الطفولة! فعلى جانبي الطريق، رأيت عيونا تبرق في الظلام، وأخرى ترسل الشرر.. وشعرت بلدونةٍ نابضةٍ تحت حذائي المثقوب، فتذكرت المقابر.. يوم أخذتني أمي ـ ليلا ـ وغسلتني على قبر أبي.. ثم جففتني بثوبها الأسود فبرئت من مرضي، وكادت تموت رعبا حين سقطت في قبرٍ مفتوح، ورأت ما رأت، فساندتها إلى بيتنا وهي ترتجف، ثم نصحتني أن أدفن سرها حتى تموت .. فبقيت وحدي!

وما كدت أسمع عواء الذئاب والضباع البعيدة، حتى جريت نحو صاحبي هائما مستنجداً فسقطت عدة مرات، وشعرت بمن يجد في أثري ويرشقني بزجاجات ظلت تتهشم حولي، وأنا أثب وانحني، أسقط وأقوم، أحاول الصراخ فلا أستطيع، وكلما تأخر رد رفيقي، زاد جزعي، وأنا أدعوه لنجدتي فلا يأتيني سوى الصدى.. لعنت نفسي، وتمنيت أن أتخلص من ذلك العقل الذي يزحم جسمي، وقبل أن تصعد الشمس، شعرت بمن يلكزني بعصاه، ويطالبني بالوقوف وحين تطلعت إليه بدا لي نخلة، ثم شبحا وغوريللا، ففقدت كل قدرة على الصراخ.. لكنه أنقذني بصوته النوراني العميق:

ـ قم يا غريب !!

فوقفت متأملا حتى عرفته، وحاولت أن أقبل يديه شاكراً ذاكراً.. لكنه سحبها بقرف وصاح من عل:

ـ أتحتمي بضرير يا كافر؟

ثم حمد الله على نعمة البصيرة، وسحبني نحو التلال مواصلا رحلته، وأنا أخب في أثره شاكراً مثلما تخب الكلاب!

ـ 4 ـ

كنت مأخوذا بما أدركني، فرحاً بمن أدركته، وكلما كررت شكري، وفرحي في معيته كلما أشاح بوجهه ضجرا، وجرني في ركابه.

وحين تلبدت السماء بالغيوم وأزف المطر، نصحني بعصب عينيّ كيلا أفقد بصري.. فشققت قميصي الوحيد وتلفحت بنصفه، وتركت الثاني يخفق على ظهري نبراسا للهزيمة والرجاء.

وقبل أن ينتصف الليل، كُنّا قد خضنا ترعا ومصارف، وعبرنا جبالا ووهادا، وكلما توقفت شدني، وكلما توقف ساعدته، حتى وصلت الأوحال إلى القلب النابض، قال صاحبي:

ـ المرء مع من يجهله سجين!

فتشاغلت بأثقالي، وسألته عن البصر، فسألني عن البصيرة.. وحين رفعت القميص عن عيني، خلتني أمشي نحو هاوية، وعلى الجانبين تتواثب كائنات سوداء تنفث نارا من مؤخراتها.. وترمقني بعيون جائعة متعجلة، وكلما تقدمنا نحو الهاوية، زاد عددها

وتقارب، وشعرت ببعضها يطير كالخفافيش، وأخرى تأكل زراع طفلٍ وتلحس الدماء، فتعلقت بصاحبي تعلق الضرير بالضرير!..

وخلف التلال البعيدة كنت أسمع الموتى وهم يهزون قبورهم يأساً، ويصيحون:

. افتحوا الأبواب، افتحوا الأبواب.. النور.. النور!!

وكلما هززت صاحبي، ونقلت ما أري، ضحك مكذبا ومهونا فيزداد شكي في أمره، وتطفو على الذاكرة حكاية الرجل الذي أماط اللثام عن سره فركبه عفريت، والذي رافق حكيما إلى المقابر قبل أن يرى ساقه البقرية. والذي ركب حماراً دون أن يستعيذ من الشيطان فلقي مصرعه، وضاع ذكره.

.5.

كان الضوء قد تجلي.. حين حاول الضرير أن يتخلص من لزوجة كفي.. وحين نجح في ذلك. دفعني إلى الخلف متقززا وقال:

. ابتعد .. أنت مبصر!!

ثم فرك يديه اللتين تغضتا من البرد والطين، ففركت يدي وشعرت بالأوحال الباردة تملأ فردة حذائي المثقوب، فتخلصت منها لأجد عقربا يسعى في رحابها.

كان صاحبي قد سقط إعياءً فسقط إلى جانبه، بعد أن أنهكتنا العواصف والسيول، وجمدتنا الجبال والبرودة.

ولابـد أننـا تجاوزنـا مـزارع ومسـتنقعات، وخضـنا في أراض مبتلـة وأشـواك نـاتئة. لـذا مـر وقت طويـل قبـل أن تـنتظم أنفاسـنا، ونسـتعيد قدرتنا على القيام.

قلت لصاحبي ونحن رقود على الأرض:

ـ لماذا لا نجد حلا لهذا التعب.

ـ أي تعب؟

ـ تعبنا.. لم لا تحملني على كتفيك ليلا، وأحملك نهاراً؟

ـ وهل يحمل المتبوع تابعه؟

ـ يحمله.. إذا كان عاجزاً أو .. أو ضريرا.

ـ اخرس.. أنت تذكرني بضعفي.. أنت جحيمي!

ـ وأنت عورتي.. لكني لا أري بديلا.

ـ مـن يـرى بـالعين لا يـرى إلاّ مـا تـراه العـين.. ومـن يصـاحب الأحمـق أحمق!!

ـ أنت قدري.. وقريني.. ودليلي!!

ـ وأنت ذنبي!

ـ ألم تقل أن طريقي هو طريقك؟ متى نصل إذن إلى مبتغانا؟!

ـ طريقنا واحد.. ولكن أهدافنا مختلفة.

ـ لا أملك ما أُعطيك لتصحبني.

ـ وأنا لا آخذ فتملكني.

ثم قام مستندا على عصاه، ففعلت مثلما فعل، وحاولت أن أمسـك يـده فنهرنـي وقـال: "دعـني أرى"، ثـم أخـذ طريقـه معتمـداً علـى عصـاه وأنامله! فتبعته حافيا إلى منحدر.. وأنا لا أعرف أن كنت أتقدم صوب

اليمين أو اليسار.. اقترب من مبتغاي أم ابتعد.. كان الرجوع مستحيلا والتقدم مفجعا ووبيلا، فتقدمت خطوتين احترت بعدهما وتفككت أوصالي!! وما كدت أتطلع نحو المجهول حتى ملأني الرعب، وخذلتني الشجاعة، فجريت إلى صاحبي وتعلقت به كما يتعلق الوليد بالحبل السري.

- 6 -

- ابعد يا قرادة.. دعني أرى!!

هكذا صاح صاحبي وأنا أتعلق به.. وأتمسح بثيابه، التي لطختها الأوحال والعرق .

- كم تأخذ لتصحبني؟

هكذا قلت متودداً، قبل أن يداهمنا الليل ويصبح قائداً:

- كم تأخذ - أنت - لتتركني؟

- خذ طعامي !

- طعامك مر.

- خذ مركوبي !

- مركوبك مركوب.

- خذ بصري !

- دعه يهديك للبصيرة.

وقبل أن نواصل المسير، رمي الضرير جرابه ، فسألته:

- هل هناك نقطة ما.. يجب أن نصل إليها؟

ـ بكل تأكيد.

ـ ترى أين تقع هذه النقطة؟

ـ لا أعرف .

ـ إذن لماذا نذهب إلى ما نجهل؟

ـ لأن الناس يفعلون ذلك.. هل تعرف أنت؟

ـ أنا أسألك.

ـ وأنا أسألك بدوري.. أم ترى للانتظار فضيلة؟

ـ لا أظن أي فضيلة للانتظار.

ـ ها أنت تقترب من الحقيقة.

وشعرت بأننا نقترب من نهاية العالم.. من الهوة السحيقة، من البرزخ الكبير.. فحذرته من السقوط.. لكنه ظل سائراً في طريقه وكأنه فقد سمعه.

وما كدت ألمسه محذرا حتى منعني بقرف، ودعاني للغروب عن وجهه، ثم قال كلاما لم أفهمه، لكنه تدارك الأمر حين شعر بصمتي العاتب، وضمني تحت إبطه مصالحا ثم قال وهو يتوجه نحو المجهول:

ـ ها أنت في بداية البداية، فسر كما سار جدك الكبير.. واستفت قلبك ولو أفتاك عقلك، فالمرء مع من لا يعرفه سجين!!

وانتظر أن أبارح المكان فتلكأت برهة وتعللت، فدفعني بعيدا وأولاني ظهره، وهو يوشك على البكاء، فتمردت لحظة وترددت لحظات احترت بعدهما أي الطرق أسلك؟ ومن أتبع بعد ذلك؟

وما كدت أخطو خطوتين حتى خطا أربعا، وبعد عدة خطوات صارت المسافة بيننا لا تحتمل! كان الضوء قد تجلى من مشرقه القريب، حين وحدتني في القلب منه، وبدا لي أنني أول مخلوق في عالم لم يتخلق بعد، فخفت على بصري من ضوئه الباهر، وفي التفاتة وامضة رأيت صاحبي يهيم كالفراشة الحمقاء وهو يصيح كالمجذوب:

- النور .. النور !!

فشعرت بروحي تتحرر من عقالها.. ومن سجن الجسد وغلافه المجدور، وتتبعت ظله وأنا أشعر بالحصى تتواثب تحت قدميَّ الحافيتين.

- إني أرى.. إني أرى!!

هكذا صاح صاحبي وهو يهيم نحو هاوية، فسعيت في أثره صائحاً ومحذراً:

- ارجع يا ..

وحاولت أن أذكر له اسما فلم أجد.. كان قد أخطرني حين سألته بأن كل الأسماء سواء، فخفت أن أناديه بصفته كضرير فناديته بما تيسر:

- ارجع يا كائن.. يا بني آدم.. يا شخص!

فتجاهلني وواصل هيامه المأخوذ، وكأنه فراشة تسعى إلى حتفها:

- ارجع يا مخلوق.. يا كائن.. يا إنسان!!

لكنه واصل سعيه الممسوس نحو الهاوية.. فجريت كي أرجعه وأقوده إلى الطريق الصحيح، لكنه أخبرني بأن "من يزحف لا يطير، ومن يطير لا يزحف" فوقفت مأخوذا بما أحس وأري، وتمنيت أن أصحو إن كنت في حلم، لكني سمعت صوته الآفل المبتعد يسقط ويتناهى، وحين حاولت إنقاذه هالني العمق والظلام، وراعني الموت والردى، فتراجعت مرتعبا وظللت أعود بظهري حتى سقطت في منحدر، ولم يمنعني من السقوط في الهوة العمياء سوى شجرة عجوز، لكن صوته الكابوسي الممدود ظل يتماهي من بعيد، وينقسم في مسامعي، وخيل إليّ أن جسمه المفرود قد أخذ مكانا في مدار سرمدي لا نرى منه سوى الشهب، ولا نسمع منه سوى رجع الصدى.

ولما كانت العودة - من حيث أتيت - لا تعني سوى الانتحار، فقد تدبرت أمري، وتداركت حالي، ولم يبق لي سوى المغامرة.

كان الماضي يثقلني بكوابيسه وضحاياه، والحاضر لا يعني سوى الفناء والمخاتلة، فأخذت طريقي إلى النفق الطويل، ذلك الذي يفصل بين ما أجهل وما أخاف. وبين ما أعرف وما أهفو إليه، بعد أن تخثرت كل الأماني، وتعادلت كل الهموم.

كان النفق زلقا ومعتما، وعلى حوافه الشوكية الضيقة، تخرج ثعابين وتزحف زواحف.

ولما تيقنت أنه الطريق الوحيد إلى صديقي الضرير، تحررت من متاعي وملابسي، وكأني أعود لرحم أمي..

وقبل أن أخطو الخطوة الأولي إليه، أغلقت عينيَّ، وملأت صدري بالشهيق.

وقبل أن أدخل النفق بعدة خطوات مترددات.. بدأت أزحف!!

الإسكندرية 1996

بنـــدق

• إذا تطابق اثنان.. فأحدهما يغني عن الآخر •

بندق

قبل أن يلفظ جدي أنفاسه الأخيرة، رأيته يضغط كف أبي، ويوصيه خيراً بـ: "بندق" !!

وبندق هذا مجرد "حمار حصاوى" يقال إن جدي ورثه عن أبيه، ولأنه لم يرث غيره، فقد صارت له - إمعانا في المفارقة - معزّة خاصة، إذ كنا نركبه بحرصٍ شديد، ولا نضربه على جرحه القديم، أو نصك عارضيه، إلاّ في غياب جدي!!

وحين وارينا جدي تحت التراب، باع أبي جملين وجاموسة، واشترى سيارة جديدة، خصص نصفها للبشر، والآخر للبقر، فأعفانا من غرور الجمال وغباء الحمير. ووضعنا على تخوم طبقة اجتماعية أعلى، ونقلنا من عصر الجر والركل والعض، إلى عصر الكر وافر!

ولم تعد الجمال تختال بحملها القشي في طرقات القرية، وتمنعنا - نحن الصغار - من المرور واللعب. وكثيراً ما كانت تطأ كورنا القماشية فتتلفها ببرود لا يحتمل، فيما كانت الحمير تتحرش

ببعضها أمام البنات، قبل أن تطارد أنثاها . وتطاردنا . في الحقول والحواري ، راكلة كل من يحاول الاقتراب منها ، أو الوقوف في طريقها. وحين لا تجد ذكورها ما تفعله، تتوقف أمام النساء الجالسات على عتبات بيوتهن، وتبول . باستمتاع غريب . بولا مزبداً مخضراً ثقيلا، له ملامح السيل، وروائح النوشادر المركزة، ما يلبث أن يتجمع في بركةٍ صغيرة قبل أن تسيل في تعرجاتٍ ماكرة، نحو البيوت الواطئة، فتهب النساء عن الأرض فزعات، ماسحات التراب عن مؤخراتهن، وهن يلعن الحمير، وأيام الحمير. وقد تختلس بعضهن نظرة خاطفة إلى العضو الأسود الثقيل في كسوف واضح، وهن يغلقن الأبواب، حتى ينتهي الحمار من حموريته!!

قلت لأبي وأنا أرمق حمار جدي:

. آن لنا أن نتخلص من الشر!

فأشاح بوجهه، وذكرني بالوصية.

. ومتي كان الناس يتبعون الوصايا؟

هكذا قلت وأنا أنظر حولي، فسمعته يهمس:

. الفشل باتباع الوصايا.. خير من النجاح بمخالفتها!!

كنا قد شيعنا آخر المجاملين بانكسار مماثل، وبات حمار جدي أرثا رازحا يثقل القلب، ويمض الجسد.

ثم ازدادت الأمور تعقيدا، حين اشترينا أرضا جديدة في زمام قريةٍ بعيدة وبات عليَّ . أنا الكبير العاقل . أن أخوض الحقول والمصارف، وأتجنب السواقي والطواحين المهجورة، لأحضر البرسيم للحمار ابن الحمار، احتراما لذكرى، جدي وصدقةً جارية على روحه!

وكلما طلبت من أبي أن أركبه إلى هناك ذكّرني بالوصية، وخاف أن يسرقه سارق، أو يعقره ذئب جائع.

وحين أخيّره بيني وبين الحمار، يختارني على مضض، لكنه يعدني بركوبه حالما تنتهي الحكومة من رصف الطريق بعد أشهر، أو تمر سنوية جدي!! وحين حسبتها - بضرب يوم الحكومة في سنه - أدركت أن عمري سينقضي في خدمة الحمار، وأن ما كنا نركبه ونهز أرجلنا في عصور الشمشم والقباقيب، بات يركبنا في عصور السيارات والفضائيات!

وحتى نبتلع المفارقة، بعد أن أصبح "بندق" عبئاً على الجميع، أخذني أبي إلى ركن قصي، ونصحني بألا أحكم وثاق "بندق" وليهرب إن أراد، حتى نتخلص من ذنبه، بعد أن رجته أمي ألا يضحي بـ "الكبير العاقل" من أجل حمار تافه، فكاد يضربها، ويطردها من البيت!! شكته لخالي وعمي الصغير، فسألاه بصراحة عن أهمية الحمار في عصر السيارات والنفاثات فخاصمهما على الفور، وأقسم ألاّ يحضر لأيهما فرحاً أو ترحاً.. لكنه - بمرور الوقت - بدأ يكتشف أن فوائد الحمير بدأت تتراجع وتضمحل بالفعل، بعد أن أصبحت السيارة تنجز في ساعة، ما يعجز الحمار عن إنجازه في شهر، كما لاحظ - بمرور الزمن - أن الحمار قد سمن كفله، وغلظ عضده، وداهمته البلادة والبدانة بفعل الراحة والرفاهة.

فيما بدأ جسمي - أنا الكبير العاقل - يهزل وينحل، ويخضر عاتقي من حمل البرسيم كل صباح، وكلما سأل عني ليرسلني إلى البقال أو الحلاق قالوا له:

- في الغيط.. في الغيط!!

- لماذا؟

- ليحضر البرسيم لبندق.

- ملعون أبو بندق.

هكذا يصيح أبي محتدا ، قبل أن يتذكر أنه حمار أبيه، وما بقي من ريح جده !! به عرف الصبر والمداهنة ، وعلى ظهره الوثير بني "الحميريون" حضارتهم، وتداركه الفراعين على جدرانهم، وامتطاه رسل نبوخذنصر وجنده إلى الشرق القديم. ولم يخجل حمورابي من ركوبه، أو تقارب الوزن والقافية مع اسمه.

وعن ظهره الصبور سقط سيدنا الخضيري - شيخ البلد - حين امتطاه دون أن يستعيذ من الشيطان الرجيم ، فلقي حتفه!!

ورافق طومان باي إلى بلاد المغارات الست، فشنقوه!!

وعند هذه النقطة، أدرك أبي أنه لعن أبا الحمار، ولم يلعن صاحبه، فلم يعتذر أو يتدارك، لكنه أيقن - بكل جلاء ووضوح - أن الميزة الأخيرة للحمير قد انتهت إلى غير رجعة!

وأن هنـاك ـ في هـذه الـدنيا الشـريرة ـ مـن يأكـل لحـم الحصـان والأفعى والخنزير والجربوع، لكنه لم يسمع ـ أبداً أبداً ـ عمن يأكل لحم الحمار!!

وهـو مـا يقضـي علـى أي أمـل في بيعـه أو الإفـادة مـن شـحمه أو لحمه!!

كمـا تعـرف أمـي أن جلـد الحمـار لا يصـلح لوضـعه علـى أكتـاف النساء ، حتى تبيعه في أقرب مدينة !!

فهو الجلد الوحيد الذي لا يدبغ، وإن دبغ يزداد تصلباً وخشونة.

ولا يمتص أي عطور ـ أو دهـون ـ يمكـن أن تضـعها المرأة لتحد مـن غلظته، أو رائحته التي تُنفّر حتى آكلات الجيف!

ولا يسـتجيب لأي لـون يمكـن أن يغـير مـن حيـاده الفاضـح، أو "كلاحته" البادية!

كمـا تعـرف أجهـل الفلاحـات، أن مخلفـات الحمـير لا تصـلح لأي شـيء.. فهـي تـؤذي الـدواجن، ونظـر الحوامـل، وتـؤثر علـى حـيض الصـبايا ، وتنفـر الزوجـات مـن أزواجهـن، والأزواج مـن زوجـاتهن، ولا تصـلح حتـى لصـناعة "الجلـة" أو تسـميد الأرض، لأنهـا تحـرق الأرض، وتتلف الزرع وتنفر الأبقار والجديان.

أما الأظلاف والغضاريف، فلم يجد لها علمـاء التجميل والتكميل حـلا يرضـي جميع الأطـراف ، فـلا هـي تصـلح لصـنع المكاحل أو المراود ، ولا هي تتحد مع أي كريم للوجه أو الكاحل.

وقـد حـرَّم رجـال الـدين شـحمه ولحمـه ، ومنـع رجـالات السياسـة استخدام أظلافه في صنع النياشين والهدايا!

أما دمه فقد حرمته كل الأديان والطوائف ، لأنه "زفر" غليظ الطبع والطابع، لا يصلح للنقل أو التبرع، ولا يجوز لمسه أو حفظه!!

وقد قرأنا في صحيفة قديمة أن عالما - متواطئا - جرب مشروبا للسعال من عصير الحمير ففقد بصره.

فيما حكم على آخر بالسجن والغرامة، لأنه سحق أظلاف الحمير ومزجها بمزيج غامض، فقامت حرائق حطمت معمله، وأصابت جيرانه!!

وضبط ثالث في جمارك إحدى الدول المعادية بنفس المزيج فلم يعرف مصيره حتى الآن!!

ولم يذكر التاريخ أن حماراً كسب معركة، أو انقذ غريقا، أو ضحي بحياته من أجل إنسان!

بل تجاهله هانيبال، ورمسيس، وجانكيز خان ، وهولاكو، فدانت لهم الأرض، وتداعت القلاع، فيما ركبه "سانشو" خلف سيده الجليل - دون كيخوته - فلقي مصرعه، وترك سيده يصارع الطواحين!

فإذا كان للحمير كل هذه العيوب والخطوب، فلماذا يصر أبي على بقاء "بندق" في حظيرتنا ، وما علاقته بأي "بندقة" يمكن تخيلها؟!

فعينه في حجم بيضة البطة ، وخصيته في حجم البرتقالة ، ولا يتمتع بأي بندقه أو "حندقه" يمكن تخيلها أو اعتمادها في قاموس.

فقد أصاب كل من ركبه بالبواسير، والنواسير، ولم يترك كبيرا ولا صغيراً إلاّ ورفسه هنا أو هنالك.

ويقال والعهدة على أبي أن جدي الكبير مات بسبب رفسة من بندق في مكان حساس لا داعي لذكره في هذه الأيام العصيبة.

ولا أنكر - بدوري - أنني ركبته - في طفولتي - إلى البندر البعيد، وفي أيام الامتحانات - لا أعادها الله - كان جدي يسمح لي بذلك، فأركبه إلى المدرسة، وأربطه في حوشها لعدة ساعات تحت شمس يوليو الحارقة وحين أعود مرهقا - والبرشام يملأ جيوبي - أراه يسف التراب من حوله، ويبحث عن أي شيء يأكله أو يشربه، وما إن يراني من بعيد حتى يتطلع نحوي بعتاب وبلادة لا تتوفران إلاّ في الحمير، فأركبه من فوري وأضربه على جرحه القديم، كابحا بطنه الهضيم بساقيَّ فيجرى، فأضربه ثانية فلا يعرف ما يرضني، وما تعين عمله بالضبط: يجرى أم يمشي على مهل؟

وأكاد من فرط إرهاقي وغيظي أسمعه يغمغم بغيظ دفين:

- منك لله .. يارب تسقط!

أما الآن، وبعد أن عاد الفلاحون من بلاد النفط بنقود خضراء، وسيارات مارقة، يستطيع أي مخلوق أن يركبها إلى البندر البعيد إذا ما دفع ربع جنيه، نستطيع أن نقول: وداعا لعصر الحمير!

بعد أن خسرت آخر معاقلها، باختراع الجرارات والحصادات والزحافات والعزاقات فحق عليها القول السديد:

- أبوك السقا مات!!

وقبل أن يجرى في النهر ماء كثير، ظل الحمار يحتفظ بمكانته الحميرية حتى بعد ظهور السيارات، وعدم إتاحتها لكل الناس.. في عصر لم نكن نرى فيه الخمسة جنيهات إلا في دوّار العمدة!!

أما وقد اشتراها كل من هب ودب وقام وشب. فقل للحمير - كما قلنا للششم والقباقيب - وداعا.

فلم يعد في ركوب الحمير - حتى المطهمة - مدعاة لأي فخر، أو دلالة على مكانه، بل أصبح دليلاً على التأخر والتنطع والوضاعة!!

وربّما لهذا السبب أو ذاك، اختفت الحمير من بلدتنا فجأة كما اختفت التماسيح من شوارع القاهرة المعزية..

ولم يبق سوى حمار جدي!!

وحين سألنا عن السر في ذلك، قيل إن تاجراً من البندر البعيد، اشتراها لحدائق الحيوان، فضحك العاقل منا، وضرب كفا بكف. ووصلتنا إشارته بعد فترة فشاركناه الضحك.. إذ ليس من المعقول أن تأخذ عائلتك. وتدفع للمواصلات..

والمأكولات..

والدخول..

والمشروبات

لكي ترى - في نهاية الأمر - حمارا في قفص !!

أي متعة في ذلك ؟

أي مجد وأي فروسية؟

وماذا تقول للجيران؟

لم تهدأ خواطرنا، وتهجع نفوسنا ، حتى أخطرنا عليم عاقل بسوء نيتنا .. وخواء فكرنا .. وأكد لكل من فتح فمه وأغلق عقله.

أنها ستكون طعاما للأسود، والنمور والضواري.. بعد أن ارتفعت أسعار اللحم الصومالي..

وبيعت "الأمانة" في أرقى المطاعم، وفقد آكلوا اللحوم من بني جلدتنا التمييز بين لحم الحمير.. ونبوت الخفير!!

غير أن الحارس الأمين لاحظ أن الأسود . بمرور الزمن . بدأت "تتحمر"، وتصاب بالخمول والبلادة، ورأى "بأم عينيه" أسداً يرفس قرينه، وهو ما لم يره في حياته قط!! فقد تعود أن يرى الأسد يعقر أسدا، أو حتى لبؤة.. لكن أن يرفسها فذا تطور خطير كان عليه أن يخطر المشرف فورا، حتى يخلي مسئوليته، وهو ما فعله المشرف أيضا فرفع مذكرة إلى مدير الحديقة، حيث اجتمع مجلس الإدارة، وقرر بعد أن اتهموا بعضهم بالجهل والخرافة، وأكد بعضهم أن لحم الحمر لا يضر سوى الحمير.. وأن ما يشاع عن غبائها وتخلفها إن هو إلا إسقاط يمكن فهم بواعثه، لو أمعنا النظر في وجوه أعضاء هذا المجلس الموقر!!

ولكي تدرأ الشبهات، وتحسم الأمور، قرروا الاكتفاء بما أكلته الأسود والنمور من حمير، وإعادة ما تبقي للمورد الملعون!!



.. بعد مرور أربعين يوما على وفاة جدي، بدأت مشاعر أبي تجاه "بندق" تضطرب وتتناقض، خصوصا بعد أن رآه يبول على البرسيم

الندي، الذي حرم أولاده من اللحم ليوفره له. وحين أراد أبي - ذات ليلة مفعمة بالحنين - أن يربت على ظهر "بندق" إحياءً لذكري أبيه ، وما بقي من عطره الغافي ، فوجئ بالحمار - ابن الحمار - يركله في إليتيه، ويسقطه على روثه الدافئ، فشم رائحة أزكمته على الفور، وقلبت معدته، فلعن الحمار والبغال معا.. وقبل أن تشرق الشمس، رأيته يتسلل إلى الحظيرة كاللص الخائف ويفك وثاق الحمار عله يهرب "ويحل عن سماه"!

وحين رآني كامنًا خلف الأجولة صارحني بأنه لم يعد يطيقه، وأن الأجدى له ولنا أن نتركه في البراح عله يهدأ ، ويعود لنشاطه.

فهو حيوان، والحيوان بطبعه لم خلق ليوثق بالحبال، غير أن "بندق" لم يكن بالحمار السهل المطواع الذي يمكن ترويضه أو ركوبه بسهولة.. فقد حرن وبرم وعض ورفس، ونحن ندور من حوله ونصالحه من بعيد، ولم يهدأ إلاّ حين غسلناه بالماء الدافئ.. بعد أن تخضبت بطنه بالروث والمخلفات القديمة، وجف بعضها في عدة أنحاء من جسمه الممتلئ بحكم الراحة وحسن الهضم!

وبعدة حيل - لا تغفل على حمار - سحبناه إلى الغيط حيث التنوع والهواء النظيف، لكنه أعرض عن كل ذلك، وظل يطارد كل حماره يجدها في الجوار، فتجرى أمامه ويجرى خلفها، بعد أن تسقط من عليها وما عليها.. وبسبب سمنته المفرطة لا ينول وطره أبداً، فيعود مهزوما منكسراً، ولا يجد أي عزاء له سوى دفن وجهه في البرسيم وإعادة المضغ والبلع.

وقبل أن تغرب الشمس أعود به إلى حظيرته راجلا.. بعد أن يحذرني أبي من ركوبه، ليس لأنه لا يستطيع حملي، وإنما لأنه "حمار جدي" وعطره الباقي، رمز العائلة وشرفها الذي يجب أن نحافظ عليه بغض النظر عن تجسده في حمار أو بطريق أو صقر!!
كان الأولاد يسخرون مني وأنا أسحبه خلفي، ويذكرونني بجحا حين ركب هو وابنه فضحك الناس ساخرين من قسوته، وفعلوا الشيء نفسه حين ركب هو وترك ابنه، ثم فعلوا الفعل ذاته حين مشي هو وركب ابنه فاضطرا لأن يحملا الحمار على كتفيهما ليسكت الناس فسخروا أيضا مؤكدين أن الحمار ما خلق إلاّ ليركب!!

وفي البيت بكيت في حضن أمي وشكوت ما جرى فرق قلب أبي.. وسمح لي بركوبه حينما أكون على مشارف القرية فقط ما دام الناس لا يعجبهم العجب، ولا الصيام في رجب ! غير أن الحمار أوقعني على الأرض وكأنه يُركب لأول مرة، وأصابني في ركبتي بجرح غائر وكادت ركلته القاتلة تطال ما يؤكد رجولتي.. وحين علم أبي بذلك رق قلبه ثانية بعد أن أخضر شاربي وغلظ صوتي وأمرني . هذه المرة . بتركه هناك وليكن ما يكون.

. في الغيط ؟!

. في الغيط ..

. لكنه حمار ولا يعرف الطريق .

. إنه يعرف أفضل منك..

وكان أبي على حق، فما كادت الشمس تغرب حتى رأينا الحمار يأتي مختالاً بمفرده ويركل الباب الموارب، ثم يدخل إلى حظيرته.. بين دهشتنا وترحيبنا المضمر، وبدأت معاناتي ومسئولياتي تخف شيئاً فشيئاً، حين اقتصرت على مرافقته إلى الحقل وتركه هناك. بعد أن مهدنا له بعض القنوات وردمنا بعض العوائق وشيئا فشيئاً بدأ بندق يعفيني من هذا العبء الثقيل.. فيقوم في الصباح الباكر ويظل واقفا أمام الباب، حتى يصحو أحدنا ويفتح، ثم يعود مساءً في نفس الميعاد وكأنه قطار إنجليزي.. وهو ما أثلج صدر أمي، وأراح أبي.. وأتاح لي أن أذاكر، وألعب مع الأولاد كلما أتيح لي ذلك.

ولم يمض أسبوعان حتى أتى تاجر الحمر ببعض الحمير التي رفضتها حديقة الحيوان، وأعادها لأصحابها فرفضوها على الفور وأنكروا أي صلة لهم بالحمير، فتركها على مشارف القرية نكاية فيهم، ولم يعد "بندق" وحيدا.. إذ بات له أصدقاء وصديقات من جنسه، يخففون عزلته ووحدته، ويبقون على نوعه، ويحافظون في ذات الوقت على سمعة العائلة، بعد أن بات البعض يميزنا بالحمار - غيلة أو جهلا - حين يسألهم غريب، أو يدققون في الاسم الرابع فلا يجدون سوى "أصحاب الحمار" تمييزا لنا عن "أصحاب اللوري"، و"أصحاب الجرارات"، و"أصحاب الديك الشركسي"!!

ولكن لم يمض أسبوع حتى حدثت الكارثة.. حين حضر فلاح فقير يلطم خديه، ويسألنا عما سيبقي لأولاده، بعد أن تزعم "بندق" عصابة" من الحمير وأتلفوا زرعه!!

وما كدنا نصل جرياً إلى هناك، حتى رأينا أكثر من عشرين حماراً يأكلون من القمح سنابله، ومن الخيار ثماره، ومن الشجر أنفعه، بعد أن قضوا تماما على قراريط البرسيم التي خصصها أبي لبندق!!

حاولنا نحن الأربعة ـ أنا وأبي والرجل وابنه ـ أن نسيطر على الوضع فلم نستطع ، إذ كلما أمسكنا حمارا هرب خمسة ، وما نكاد نتركه لنمسك الثاني حتى يهرب الأول ، وهكذا حدث هرج ومرج لا يحدث حتى في الأفلام الهزلية.. وحين عدنا متساندين من فرط الإعياء والركل، والجري خلف الحمير، كان التعب قد أهلكنا، وبات همنا أن ننام بأسرع ما يمكن، وفي أي مكان في بيتنا، حتى ولو كان في حظيرة بندق!!

وقبل أن ينتصف الليل سمعنا طرقاً مفجعاً على الباب الكبير ففزعنا من نومنا واحتمينا ببعضنا البعض، وكان أبي أول من تقدم إلى الباب ووضع أذنه عليه متوجسا ومتسائلا: "مين"؟!

وانتظرنا أن يأتي الصوت قاطعا وحاسماً من الخارج: "بوليس"!!

لكننا سمعنا طرقة جديدة كادت تسقط أبي على الأرض! وتوقعنا أن ينكسر الباب ويحيطنا البوليس من كل جانب، قبل أن يأخذنا إلى النيابة بتهم لا نعرفها، لكننا فوجئنا ببندق يرفس الباب ثم يستدير وينتظر قبل أن يرفس رفسة جديدة!!

وفوجئنا بأبي وقد نام بثياب الخروج ربَّما لأول مرة في حياته! وما كدنا نفتح ونفسح الطريق لـ "بندق" حتى نظر إلينا باحتقار، ودخل ـ متقززاً من مناظرنا ـ إلى حظيرته الجافة. فشيعه أبي بنظرة عاتبة،

وكأنه كان ينتظر من "بندق" أن يرمي بالسلام، أو حتى "يدحرج التماسي". وحين لم يفعل ذلك نظر إلينا وهو يحاول أن يخفي رضوضه وآلامه ولم يزد عن القول:

ـ صحيح .. حمار!!

وبالتكرار والحكمة بات ذلك من الطقوس اليومية للأستاذ بندق: يخرج في الصباح الباكر ويأتي قبل أن ينتصف الليل، حتى أن أبي كان يصيح وهو نائم لكي نفتح الباب لبندق قبل أن يكسره!!

وشيئا فشيئا بدأت الأمور تختلط في أذهاننا وبات كل من يطرق بابنا بقوة نظنه الحمار، وهو ما أغضب عمدة البلد حين أتي لزيارتنا ليلا ودق الباب بقوة فصاح أبي وهو يتوضأ :

ـ استنى يا ابن الحمار!!

وفي خطبة الجمعة تطرق الخطيب لموضوع الحمير، وأكد "أن انكر الأصوات عند الله لصوت الحمير".. وأنه حيوان جهول ما أن يقف في مكان.. حتى تغادره الملائكة..

لا يخجل ، ولا يغار على أنثاه، ومع ذلك، بل ومع كل ذلك فهو من مخلوقات الله، وإن كان قد فقد كل وظائفه فلأننا حرمناه منها، وسخّرناه لغير ما خُلق له .. وعلينا أن نعيد وظيفته كمركوب . وركوبة . قد تصلح للأطفال والصبية، بدلا من لعب الكرة تحت نافذته، أو إضاعة المصروف على المراجيح، والصواريخ، فقد تكون هذه مقدمة لركوب الخيل والسباحة.

كما أكد المهندس الزراعي أنه سمع عمن يفكر في قتل الحمير لأنها تتلف المزروعات أو تنتظم في مظاهرات تقلق الجميع.. لكني

أحذركم . أمام طبيب الوحدة الصحية . من خطورة ذلك؛ فلا توجد كلاب كثيرة في بلدنا، وآكلات الجيف لم يعد لها أي وجود بسبب العمران والزحام، وجثث الحمير بطبعها بطيئة التحلل، شديدة التقزز روائحها تقلب المعدة، وتسبب الأمراض والأوبئة، وعظمها لا يتحلل بسهولة.. بل يظل أبد الآبدين شاخصا أمام أعيننا ولا يذكرنا إلاّ بالفناء.

وحين اقترح أحدهم أن يدفنوها في مقبرة جماعية رفض ذلك على الفور، وأكد أنه دارس للمياه الجوفية، والخواص الشعرية، ويعرف أن الجثث قد تتحلل وتذوب، لكنها ستختلط بالمياه الجوفية، ثم تستحلبها النباتات . التي تأكلها الحيوانات . وهكذا يأتينا "عصير الحمير" من حيث لا ندري!!

وقبل أن ينفض الاجتماع، اتفق الجميع على نفيها في الأرض، فاستأجروا سيارة شحنٍ بمقطورة من محافظة مجاورة حتى لا تقتفي الحمير أثر السيارة، وتعود من حيث أتت.. وهكذا بقي "بندق" وحيداً، بعد أن رفض أبي . رفضا قاطعا . تسليمه لجامعي الحمير لأسباب لم يعرفها . أو يفهمها . أحد!!

وحين تأخرت السيارة، سافر أحد المتعلمين ليعرف السبب، وعاد بعد يومين ليخطر الجميع انه قد حدد ميعاداً مع السائق بعد أن رشاه بقطعة حشيش، وعرف أن المشكلة لم تكن تخص قريتنا وحدها، أو محافظتنا وحدها، وإنما هي مشكلة كل المحافظات، وربما كل الجمهوريات المستقلة حديثا.. ولهذا أصبحت سيارات الشحن هذه تعمل طوال الليل والنهار، ولابد من حجزها مقدما.. لأنها مشغولة

لعدة شهور قادمة وهو ما فعله ـ والحمد لله ـ وحجز خلال أسبوع، ثم أتي بما هو أهم.. وهو أننا لم نعد البلد الوحيد الذي يتخلص من حميره، "ويقلب لها ظهر المجن" لهذا وذاك يجب أن نحتاط، ونعرف أننا قد نتخلص من عشرين حمارا فيأتينا خمسون، وبما أننا لا نستطيع أن نقيم حدودا أو سياجا حول البلد فمن الحكمة أن يتحرك شيخ الخفر، وينشر مراقبيه وقناصته على المداخل المعروفة، وهو ما أثار سخرية البعض قبل أن يؤكد أن الحمير لا تحمل جوازات سفر لتأتيك من الأبواب الرسمية، بل هي تفضل الغيطان والترع والأماكن المهجورة.. وعلينا أن نعرف أن مشاكل الحمير قد تفاقمت، وتراكمت بشكل غير مسبوق.. بعد أن اتحدت لأول مرة في تاريخها.. وسببت إزعاجا للجميع، وبعد أن أصبحت تعطل المرور بوقوفها البليد في نهر الشارع، وركلها كل من يحاول إبعادها، وترعبنا ليلا بنهيقها المتواتر، الذي لا يحترم أي هرمونية، والأنكي من كل ذلك أنها تفسد أخلاق الأرامل والعوانس والمطلقات بأفعالها الفاضحة ومطاردتها الدائمة لإناثها الرافضات دوما.

وهو ما دفع العمدة إلى التفكير في إخصائها، أو إذابة حبوب منع الحمل في أكلها أو شربها.. لكن الحمير فطنت للأمر فأعرضت، وضاعفت من إغاظتنا بنهيقها الدائم، وتجرأ أحدها على بغلة العمدة شخصيا.. وبال بعضها ـ عمداً ـ على السيارات الواقفة بما فيها سيارة المقدس عطا الله. وهو ما دفعنا للحيلة والتدبر، وخيل لبعضنا أن الحمير تفهم ما نقول، وتدس بيننا من يتحسس ويتجسس على

ما نقول، لذلك أصبحت لقاءاتنا سرية - ومفاجئة - وأصواتنا خافتة، والنظر حولنا وارداً ومبرراً.

غير إن المشكلة التي لم تحل بعد، ويصعب حلها في جلسة واحدة، هي مشكلة "بندق"، صحيح أنه لا يشارك في هذه التظاهرات والاضطرابات بحكم عكوفة الدائم في حظيرته، ووجود من يكبح جماحه، لكنه في النهاية حمار.. ونحن نريد حل المشكلة من جذورها.. والمثل يقول ما لا يؤخذ كله لا يترك كله.

لهذا وذاك أخذ العمدة بعض رجالات البلد وقضى الليل في إقناع أبي حتى رضخ، ووعدهم بتسليم "بندق" حالما يأتي اللوري.. ورفض أي تعويض يمكن دفعه!!

وحتى لا يغير رأيه صارحه أحدهم بأنه رأى - بأم عينيه - طفلا يطأ حمارة عجفاء، ورأي آخر زوجةً لرجلٍ مريض تديم النظر لحمار، وذكره ثالث بانحسار البواسير والنواسير منذ ركبنا السيارات، وهجرنا الحمير والبغال، وقال العمدة إن الوفاء للجدود لا يعني الرقود أو القعود.. والموت حق لمن يستحق، و.. و..

وبعد يومين أتى اللوري وأتى الدور على "بندق" فرأيت أبي يودعه وكأنه يودع ابنا من أبنائه، ورأيت بندق وهو ينظر إلى أبي نظرة عاتبة طويلة تنطوي على طيبة موروثة، وبلادة فطرية، واستسلام قدري مهين، يوشك أن ينطق وأن يقول.. فتطلع أبي إلى الأرض، ولم يرفع عينيه حتى وهو يشعر بالسيارة تتحرك ببندق وأقرانه إلى مثواهم الأخير!!

ولم يمض أسبوع على ذلك، حتى سمعنا صخباً وصراخاً في كل مكان ورأينا الأولاد تهرب في المزارع، والرجال تفسح الطريق، والنساء يسرعن إلى بيوتهن ويغلقن الأبواب، والبط والإوز يتصايح ويحاول الفرار..

وعلى مشارف البلد رأينا هالة من تراب وغبار، ما لبثت أن كشفت عن أكثر من خمسين حماراً في طريقهم لاحتلال البلد، وتطهيرها من الخونة.. وكانت دهشة أبي ساحقة حين رأى "بندق" يتقدمهم في خيلاء، وكأنه عائد من فتح طروادة.

وما أدهش الجميع هو أن عدد الحمير زاد عشرة بدلاً من أن ينقص عشرين وبعد بحث وتمحيص، عرف الجميع السبب فبطل العجب، ثم تيقنوا أن "بندق" هو سبب كل المصائب.. لأنه لعب دور العميل المزدوج، وحرض الحمير على التمرد والعصيان، فتنبه الناس للأمر، وقرروا أن يتخلصوا - في أقرب وقت ممكن - من هذه الحمير بنت الحمير! أما بندق "اللعين"، فله حل آخر، ومعاملة خاصة!! وكان أول من تحرك هو شيخ الخفر، حيث سهر مع "الصول مبروك" الذي أحيل على التقاعد قبل شهرين، وبعد أن "كركرا" ربع قرش حشيش، عرض ما لديه بكل إخلاص وطلب خبرته الشهيرة في السجون، وتعذيب المعتقلين، والقبض على المشبوهين!! وبعد أن سعل الرجل عدة سعلات، وبصق عدة بصقات، نصحه بما لا يعرفه أحد حتى الآن، لكن ما يهم الجميع أن الحمير قد ذهبت بالفعل إلى غير رجعة!!

أما بنـدق ـ حائك المؤامرات ومـدبر الانقلابات ـ فقـد عـاش حياتـه دون أن يشعر أحد بأي تغيير في حركاته، أو تدبير في سـكناته: يقـوم قبلنا ويأتي بعدنا.. وكأنه لا يريد أن يرى أحداً، أو يشعر به أحد!!

لكـن تحـت ضـغط شـيخ البلـد، وتهديـد العمـدة، ورجـاء السـائقين والمتعلمين وافق أبي ـ وهو يتمـزق حزنـا ـ علـى أن يسـرّح "بنـدق" بـأكرم وسيلة ممكنة، لنكون بذلك أول بلد تتخلص مـن الرجاسـة، وتـدخل في عصـر الحداثـة، حيث يشـاع أن بلـدتنا كانت أول مـن طالـب بتغيير نظام الأحصنة التي تقاس بها قوة السيارات والمواتير. فأصبحت تقـاس "بالسـلندر الحصـاوى" وهـو تعـبير لم يفهمـه شـيخ الخفـر، فشـرحه الأستاذ بركات مدرس الإنجليزي في خطبة عصماء، وأكـد أنـه اسـم لحيوان أرقي من الحمار، وأسمي من البغل في بطن أمه، والله أعلم.

لهذا وذاك بحـث أبـي عـن ولـد "كومنجي.. صـايع ضـايع" لم ترضـعه أمه ففهموا، ونصحواه "بابن هنومة" وقبـل أن يـأتي "بنـدق" مـن الغيـط، حضـر "ابـن هنومـة" مختـالا بفـازلين شـعره، ولكـي يصـدقه أبـي أتـي بقطعـة كبـد نيئـة وأكلـها أمامـه.. وحـاول أن يهـدم الحـيط برأسـه فرفض أبي، وفاوضه في الأتعاب من فوره.

وحتى لا يسمعه سامع، أخذه إلى غرفة بعيدة، وناقشه في ذلك.. ثم ودعه وهو يدس في يده مبلغا كبيرا.. وسمعنـاه يحـذره مـن التهـاون، أو التأخير أو ترك أي ثغرة أمام "بندق" تكون سببا في عودته!!

وقبل الفجر طرق "ابن هنومة" الباب فصافحه أبي، وأخطره انه لم ينم طوال الليل، وأنه "دورها في عقله" وضغط على قلبه، ورجاه ألاّ يلمسه بسوء.. وأن يخلصنا منه بأقل الفضائح الممكنة: "كل المطلوب منك.. أن تأخذه إلى أبعد محافظة - أو جمهورية - يمكن بلوغها، وتعود لتأخذ باقي أتعابك".

وقبل أن تشرق الشمس رأينا "ابن هنومة" وهو يغادر البلد ساحبا خلفه آخر ما بقي لأبي من "ريح أجداده" - بندق - الذي بدا مستسلما بشكل غريب وغير متوقع.. ولا أعرف أن كان أبي قد فرح لذلك أم كبح أحزانه، ولكن ما عرفه الجميع بعد ذلك، وبما لا يدع أي مجال للتخمين أو الشك، هو أن "بندق" عاد مختالا بعد أسبوعين، ولم يعد "ابن هنومة"!!

وفي ذلك قيلت الأقاويل :

منها مثُلا : أن "بندق" هو الذي باع "ابن هنومة" في بلاد غير مولعة بأكل الحمير!!

وقيل أن "ابن هنومة" طلب حق اللجوء لدولة أفريقية لا تأكل لحوم البشر !

كما قيل - والله أعلم - إن حرس الحدود تمكن من "ابن هنومة" ولم يتمكن من "بندق" فسجن الأول وهرب الثاني!

وقيل إنه احتقر نفسه وكاد يرمي بجسمه من جبال الكونغو، لأنه نجح في صيد أسد، وفشل في امتطاء حمار!!

وقيل - أيضا - إنه أخذ نقود أبي ليتاجر بها مع قبائل أفريقية تتاجر في جلود البشر، بعد أن تزوج منهم، وأنجب شيئا رماديا ما كاد ينزل حتى طارد أبويه في البراري!!

وكان أبي قد رأي أن حظيرة "بندق" قد خلت، فاشترى عدة بقرات عجاف شغل بها الحظيرة.. وفي غمرة فرحته بعودة بندق المفاجئة، نسي أن ينقلها إلى مكان آخر، لذلك سمعنا صخبا وضجة بعد دخول "بندق" بعدة دقائق، فجرينا مفزوعين، لنرى "بندق" وهو يطيح في البقرات ركلا وعضا. ولم يهدأ باله إلاّ حين أخرجنا البقرات من الحظيرة، بل ومن البيت كله!!

وفي الصباح لم يخرج "بندق" كعادته، وظل راقدا لا يريم، ولا ينظر إلى أحد، فرجاني أبي أن آتي ببرسيم من أي حقل قريب، وقدم له الماء في دلو جديد، لكنه لم يأكل ولم يشرب، ولم ينظر إلى أحد. وحدث في اليوم الثاني ما حدث في الأول، فحاول أبي أن يجامله وقدم الفول والشعير، لكنه أعرض عن كل ما حوله ففكر أبي أن يأخذه إلى الطبيب البيطري، لكن أمي ذكرته بأنه لم يأخذني حين داهمتني الحمي، فهل يأخذ الحمار؟!

وفيما كان أبي يعاني من سكرات الموت، جمعنا حوله وأوصانا خيرا "بندق" ثم طلب خطيب الجامع فأحضرناه ووقفنا ننتظر، لكنه طلب أن نغلق الباب، ونغور من وجهه ثم سمعناه يهمس في أذن الشيخ بأشياء لم نتبينها فتعددت التأويلات، والتخمينات، والتحليلات.. لكننا أدركنا أن أبانا قد زهد في الحياة، وأنه يريد أن يغادر، وهو

ما حدث بعد أسبوعين بالضبط. وأحزننا لبعض الوقت.. ولكن ما أدهش الجميع كل الوقت، وفتح الأفواه عن آخرها.. هي وصية أبي..

فما كاد الشيخ يأتي ويفضها، حتى تحلقنا حوله، ورشقنا أعيننا المعنة في سطورها ووضوح أختامها، حتى تجمدت نظراتنا، وشل الخرس ألسنتنا، حين أدركنا السر في استدعاء أبي لخطيب الجامع، وعرفنا أن أبانا قد كتب الثلثين لنا جميعا أمًا الثلث الثالث والأخير.. فقد كتبه لـ .. بندق!!

الهرم 2004

فهرس

صدر للمؤلف :

- سبع وريقات شخصية .. لعامل التحويلة المنتحر

مجموعة قصصية - هيئة الكتاب - 1993

- تطهر الفارس القديم

مجموعة قصصية - سلسلة أدب الحرب - هيئة الكتاب 1996

- حارس الفيوم

مجموعة قصصية - سلسلة "أصوات" - الهيئة العامة لقصور الثقافة 1996

- البعد الغائب

دراسات فى القصة والرواية - هيئة قصور الثقافة 2000

- قصة الجيل الخامس

دراسات في القصة السيهينية - دار الحضارة العربية 2001

- خيانات شرعية

رواية - قراءة للنشر والترجمة 2005

- الوتر المشدود

دراسات فى القصة الإقليمية - الكتاب الفضى 2006

- الضوء والنار

دراسات في القصة والرواية - كتب عربية 2004

- عشرة دروس من بيتنا الكبير

أربع روايات قصيرة - قراءة للنشر والترجمة 2007